مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الرَّحمن

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الرحمن

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الرحمن

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ
بِحُسْبَانٍ ٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى
ٱلْمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١٠
فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ١٣ ﴾

افتتح الله تبارك وتعالى سورة الرحمن باسمه العظيم ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ الذي يحمل معنى: ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع خلقه تبارك وتعالى، بما يغدق عليهم من الأرزاق والخير، ويرسل عليهم الرسل، وينزل الكتب، ويظهر لهم آياته، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل يكرر عليهم الإنذار بالنُّذُرِ. ولا يؤاخذهم إلا بعد ظهور الحق، وإصرارهم على المعصية. وفي ذلك إظهار وتعريف بأن الرحمن هو اسم من أسماء الله تعالى، والذي انكره المشركون كما في سورة الفرقان ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ فإذا أخبرهم ووجههم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يجعلوا سجودهم وخضوعهم وتوحيدهم خالصاً لله تعالى الرحمن الرحيم. دون الآلهة والأوثان، وهو معنى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ أنكروا هذا الاسم ﴿ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ فأنكروه بصيغة التعجب والاستغراب. مُجيبين الرسول صلى الله عليه وسلم: بأنهم يجهلون الرحمن، ولا يعرفونه. فأظهر الله تعالى للناس أجمعين اسمه الذي يبين مدى رحمته بالخلق أجمعين. فقال تعالى مفتتحاً هذه السورة بقوله عَزَّ وجل ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ وفيه كذلك التشويق لمتابعة ما بعده من بيان.

ثم أخبر جَلَّ جلاله بنعمة القرآن العظيم، فقال تعالى ﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أي: سهل لكم أيها الناس فهم وعلم وتعلم القرآن العظيم، وهذا من عظيم مظاهر قدرته، وجليل امتنانه تبارك وتعالى. إذ يسر للإنسان

القدرة على تلاوته، وفهمه، وحفظه، ومعرفة أحكامه وبيان تشريعه، وهو أعظم كتاب، وأعظم ما نزل به الوحي، حتى قال الله تعالى عنه في سورة الحشر ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ وفي هذا البيان من الله تعالى إثبات بأن القرآن كلام الله تعالى، قد أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. مما يدل على عظيم منزلة الرسول عليه الصلاة والسلام بما أنزله الله تعالى عليه من القرآن العظيم. ومن براعة السياق أن قوله تعالى ﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ اشتمل على دلالتين متظافرتين، غير متضادتين: إحداهما: عَلَّمه محمداً، وعلَّمه محمدٌ أمته. قاله ابن السائب رحمه الله تعالى. والثاني: يَسَّرَ القرآن. قاله الزجاج رحمه الله تعالى[١] وهذا من بلاغة البيان، وإعجاز تراكيب ألفاظه، بما يغني عن تكرار سياقه لمفردات مراده تبارك وتعالى.

وقد نسب وخصص سبحانه وتعالى علم وتعلم القرآن الكريم إليه جَلَّ جلاله، إذ أسند التعليم منه مباشرة لعباده، امتناناً منه جَلَّ شأنه عليهم، وإظهاراً لمنزلة القرآن العظيم، ولقدرته عَزَّ وجل، فقال ﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ابتداء من إنزاله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ثم تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة رضي الله عنهم، ثم تناقله العباد بالسند إلى اليوم، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. ومن فوائد هذا التخصيص وقوة الإسناد ما ينفي به اتهامات المعاندين المكذبين كما ورد في سورة النحل، حيث قال تعالى عن قولهم ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ فأثبت قوله تعالى ﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أنه هو وحده لا شريك له الذي عَلَّم القرآن لرسوله صلى الله عليه وسلم، وكذبهم بهذا البيان العظيم، ونفى وأبطل قولهم وتهمتهم.

كما أن في هذا التخصيص الكريم ما يبين أن من وفقه الله تعالى للقرآن فقد عَلَّمَهُ عِلمَاً عظيماً، وأن من أراد علم القرآن سأل الله تعالى ذلك. وفي هذا دلالة على أنه شرف ووسام عظيم لمن تَعَلَّمه وعَلَّمَهُ، كما قال صلى الله عليه وسلم (خيركم من تَعَلَّم القرآنَ وعَلَّمَهُ)[٢] وأنه أشرف العلوم وأعظمها علماً ونفعاً ومنزلة في الدنيا والآخرة. فإن عِلم القرآن يبني الإنسان في عقيدته، وفي فقهه، وفي حِكْمَتِه، وتقييمه للأمور، وينير قلبه به، فهو نور وهداية ودلالة للحق، وهو أقوى ما تتقوى به الذاكرة والأفهام، والفطنة وحُسن الاستيعاب والاسترجاع، وفهم الحق من الباطل. وهو الذي يرتفع به من أخذه في جنات النعيم، كما قال صلى الله عليه وسلم (يُقال

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٢٥٤)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٥٠٢٧)

لصاحب القرآن: اقرأ وارتقِ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلَك عند آخر آية تقرؤها) [١] مما يبين عظيم منزلة من اعتنى بتلاوة القرآن العظيم. وهو الذي امتد تواتر سنده من جبريل عن الله تعالى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم إلى الصحابة، ثم التابعين، واستمر المسلمون في نقله بالسند إلى يومنا هذا، وسيبقى بإذن الله تعالى إلى أن يرفعه الله تعالى من الدنيا عندما تقوم القيامة. اللهم اجعلنا ممن شرفته بعلم القرآن، وتلاوته.

ثم بعد هذا البيان العظيم عن امتنان ربنا الرحمن الرحيم على عباده بالقرآن العظيم يذكر تبارك وتعالى امتنانه بخلق الإنسان، وإيجاده في هذه الحياة الدنيا، فقال تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ خلق ربكم جنس الإنسان، ابتداء من آدم عليه السلام، الذي هو أب البشرية، ثم هذا التناسل العجيب لذريته، المكلفين بشرف عبادته سبحانه وتعالى. وأن من مزيد الامتنان على جنس هذا الإنسان أن زوده بالقدرة على الفصاحة بالنطق والكلام. فقال تعالى ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ والبيان هو الإفصاح عما يريد بالنطق والكلام الذي يعبر به عما يريد، ومنها اللغات العالمية التي لا تُعَد ولا تُحصى من كثرتها. بل من دلالات البيان أنه الوسيلة لتناقل العلم والمعرفة بين الناس، وبين الأجيال، وأنه يُعَلِّم به المتعلم غيره من الخبرة والمعرفة. فهي نعمة عظيمة. مما يبين أن الله تعالى زود هذا الإنسان بكل ما يمكنه من البيان، فزوده بالعقل الذي يحفظ به البيان، ويستوعب به المعارف والخبرات. وزوده باللسان الذي ينطق به بما يريد من الإفصاح من البيان المراد، وزوده بآلة السمع التي يسمع بها بيان غيره له. وجعله قادراً على الحفظ، وعلى تركيب الألفاظ من الكلام الذي يخرج ويسطر بها البيان، بل وأقدره على تنسيق تراكيب الجمل والألفاظ، من أجل جمال تناسق البيان بالإفصاح، فيظهر من هذا الإنسان جميل البيان من تفاريق السياق للكلام. حتى أبدع الإنسان فيه نثراً وشعراً، وكل ذلك بسبب أن الله تعالى ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ فهي نعمة من الله تعالى على جنس هذا الإنسان.

وفي لفت الانتباه إليها بقوله تعالى ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ ما يستدعي من المخلوق أن يتدبر ويتفكر، ويحمد الله على هذه النعمة الجليلة العظيمة، فيطيع ربه، ويتبع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويجتهد في شكر هذه النعمة، فلا يستعملها إلا في الخير، ويكفها ويمنعها عن الباطل، وعن الشر. فنحمد الله تعالى على هذه النعمة، وعلى جميع ما أنعم به علينا من الإنعام الذي لا يُحد ولا يُعد.

ثم بعد بيان الله تعالى لكريم لأفضاله على الإنسان بالإيجاد وبالقرآن العظيم، وبالبيان، والقدرة على الإفصاح والتعلم والتعليم، ينتقل البيان الكريم إلى لفت الانتباه إلى عظيم مخلوقاته، الدالة على ربوبيته وألوهيته،

(١) أبو داود، سنن أبي داود، برقم (١٤٦٤) والترمذي برقم (٢٩١٤) وأحمد (٦٧٩٩) صحيح الإسناد.

وأنه رب كل شيء ومالكه، وأنه لا رب ولا إله سواه سبحانه وتعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾ أي: فالشمس والقمر يجريان بحساب مُقَدَّر ومُقَنَّن، فلكل منهما منازل يسلكها في طلوعه وغيابه، صيفاً وشتاء، وخريفاً وربيعاً، مما يترتب عليه اختلاف مكوث كل منهما بما قَدَّرَه اللهُ تعالى له، فلا يختلفان، ولا يسبق أحدهما الآخر. فحدد وهيأ ويسر للقمر منازل ينزلها كل ليلة. قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: منازل القمر ثمانية وعشرون منزلا، من أول الشهر إلى ثمان وعشرين ليلة، ثم يستتر[١] ونقل الشوكاني وغيره تلك المنازل، بأنها الثمانية والعشرون التي ينزل القمر في كل ليلة في واحد منها. وإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أولها، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة، ثم يستتر ليلتين، ثم يطلع هلالاً، فيعود في قطع تلك المنازل من الفلك[٢] ففي كل ليلة من الثمان والعشرين ليلة ينزل في منزلة من السماء، لا يتقدم ولا يتأخر. يُدخل ما نَقَص من ساعات الليل في ساعات النهار، فتزيد من نقصان هذا في زيادة هذا. ويُدخل ما نَقَص من ساعات النهار في ساعات الليل، فتزيد في ساعات الليل ما نقصت من ساعات النهار. حتى يكون الليل خمس عشر ساعة، والنهار تسع ساعات، وتُدخل النهار في الليل، حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة، والليل تسع ساعات.[٣]

فإن الذي قدر ذلك بتلك المقادير الزمنية الدقيقة هو العزيز العليم. كما قال تعالى في سورة: يس. ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠ ﴾ فلا يجوز للشمس أن تدرك القمر، فتلحقه في أحد منازله، لتذهب بضوئه، فيحصل الاختلاط في الأوقات. كما قال تعالى في سورة الأنعام ﴿ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ﴾ فالشمس والقمر يجريان في تعاقب من خلال منازلهما في السماء، وفق حساب ومنازل، فلا يضطربان، وبالتالي لا يسبق ولا يتعدى أحدهما الآخر. مما يبين كمال الطاعة والامتثال التي يجب أن يكون عليها الإنسان الذي أنعم الله تعالى عليه بإنزال القرآن، وزوده بالقدرة على البيان. فقارن أيها الإنسان بينك وبين تلك المخلوقات في الطاعة والامتثال للواحد الأحد، سبحانه وتعالى، الذي أكرمك وميزك بما أعلمك وأخبرك به.

ثم تدرج البيان الكريم إلى ما خلق من النجوم في السماء العالية، والأشجار في الأرض التي يعيش عليها الإنسان، وما هما عليه من الطاعة والامتثال، فقال العزيز العظيم ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ فإن النجم في السماء، والأشجار في الأرض طائعة وعابدة لربها يا أيها الإنسان، فهي تسجد لربها طاعة وعبادة.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٨)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤/٣٦٩)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٣٠٤-٣٠٥)

وسجود الأشجار هو ميلانها من جهة المغرب إلى جهة المشرق. فذاك سجود تلك الظلال لله تعالى، قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وسجودها ميلانها، ودورانها من جانب إلى جانب، وناحية إلى ناحية. كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: يقال من ذلك: سجدت النخلة، إذا مالت. وسجد البعير، وأسجد إذا مَيَّل للركوب[1] وكذلك سجود النجم، هو: ميلانه وتحركه في السماء. فالطاعة والامتثال أيضاً هي سجود. وللفائدة: أن السجود يشمل هيئة وضع الوجه على الأرض، ويشمل الانقياد والطاعة، وهو يعبر عن الانقياد والتذلل لله تعالى، كما تم إيضاح ذلك بأدلته في سورة الرعد. وبالتالي يشمل سجود المؤمن في صلاته، وكذلك التذلل لله تعالى، والانقياد له بالطاعة. وكذلك يشمل انقياد جميع خلقه له عَزَّ وجل، من الأجرام السماوية والبحار والأنهار والأحجار والجبال والدواب، وكل ما خلق سبحانه وتعالى، حتى الكافر فإنه منقاد لله تعالى انقياد كره، فهو مقهور بأمر الله تعالى، فإن شاء الله تعالى وسَّعَ له في رزقه، وإن شاء قَتَّرَ عليه، وإن شاء أمرضه، وإن شاء عافاه، وإن شاء منعه وحبسه عما يريد العزم عليه، وإن شاء مَكَّنَه منه، وأما المؤمن فيقابل قضاء الله تعالى وقدره بالقبول والطاعة والرضا.

وهكذا يجب عليك أيها الإنسان أن تكون في الطاعة والامتثال. ومن براعة البيان أن لفظ النجم يشمل معنيين: أحدهما: أن النجم التي هي الورقات التي ليس لها ساق. مما يكون على الأرض من غير ساق يقوم عليه. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النجم ما ينبسط على الأرض. وعن السدي رحمه الله تعالى: النجم نبات الأرض[2] فهو ما لا ساق له. وقال الزمخشري رحمه الله تعالى عن النجم: أنه النبات الذي ينجم من الأرض، لا ساق له، كالبقول. وقال سجودهما انقيادهما لله تعالى فيما خُلِقَا له، وأنهما لا يمتنعان، تشبيهاً بالساجد من المكلفين في انقياده[3] والشجر هو الذي له ساق يقوم عليه. فما يقوم على ساق، وما ليس له ساق يسجدان لله تعالى. والقول الثاني: هو أن المقصود بالنجم هو نجم السماء، قاله مجاهد وقتادة، ورجحه ابن جرير الطبري رحمهم الله تعالى[4] ولا تضارب ولا تعارض بين المعنين، وهذه من الأوجه التي تَمَيَّزَ بها القرآن الكريم، بحيث تشتمل دلالاته على المراد شموله من المقاصد. وهذه من مميزات القرآن الكريم في بناء سياقه، وتراكيب ألفاظه العظيمة الجليلة. وجميع النجم بالمفهومين يسجد لله تعالى، كما قال عَزَّ وجل في سورة الرعد ﴿ وَلِلَّهِ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤٢/١٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧٤/٢٢)

(٣) الزمخشري، الكشاف (٤٤٣/٤)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧٤/٢٢-١٧٥)

يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾ فيسجد لله تعالى من في السماوات ومن في الأرض، ويدخل في ذلك النجوم والنجم والأشجار وغيرها.

ثم يتدرج البيان الكريم إلى لفت الانتباه إلى السماء وعلوها وعظيم ارتفاعها، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ والسماء أوجدها ربكم مرفوعة عالية الارتفاع من غير أعمدة، وأنتم ترون وتشاهدون ذلك الارتفاع الشاهق العظيم من غير أعمدة تقوم عليها، فجعلها سبحانه وتعالى سقفاً محفوظاً، فإن ذلك آية عظيمة لكم أيها العباد. فلفت سبحانه وتعالى الأنظار والبصائر لتتفكر في خلقه، فإن الله تعالى عظيم في تدبيره وخلقه، وبالتالي فلا معبود بحق إلا هو عَزَّ في علاه، وأنه قادر على البعث والنشور والحساب والجزاء كما أخبركم به تبارك وتعالى. فهذه المخلوقات التي لفت انتباهكم جَلَّ شأنه إليها تدل على كمال القدرة له عَزَّ في علاه.

ثم يلفت عَزَّ وجل الانتباه إلى ما قامت عليه مخلوقاته، وما استوى عليه تدبيره جَلَّ جلاله، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ ووضع ربكم بذلك العدل، وأوجبه عليكم. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ووضع العدل بين خلقه في الأرض[1] أي: فإن ربكم الذي رفع السماء بقدرته عَزَّ وجل، قد وضع العدل في الأرض، فأوجبه على العباد. فشمل بذلك العدل في الحكم، وفي الموازين التي تُوزن بها الأشياء، وفي التكاليف التي يكلفون الناس بها بعضهم بعضاً، بناء على تحقيق مصالحهم، فيشمل الميزان بذلك العدل بين العامل وصاحب العمل، وبين الراعي والرعية، وبين البائع والمشتري، وبين المؤجر والمستأجر، وعند تحرير الأنظمة والعقود، وعند تحديد المسؤوليات والصلاحيات. فتستوفي مساحته كل شأن متوقف على الميزان بالعدل.

فربكم هو الذي وضع الميزان وأوجبه، وهي قاعدة للعدل، تربي في المسلم الأخذ بذلك في كل شأن. فإذا مال هواه للجور وعدم العدل، ذَكَّر نفسه بقوله تعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ وإذا أجحف أحد في حقه، ذكره بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ وإذا رأي غيره يجحف ولا يعدل مع غيره، ذكرهم بقوله تعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ فهي قاعدة تعالج الحيف عند الإنسان المؤمن. مما يبين وجوب العدل من الله تعالى في القضاء، وفي الحقوق، وفي كل أمر وشأن. وأن هذا الدين قائم على العدل، وأن التكاليف قائمة على العدل. فلم يكلف الله تعالى نفساً فوق طاقتها، حتى أنه عَزَّ وجل أباح للمريض ما لم يبحه للسليم، وأباح للمسافر ما لم يبحه للمقيم، كالقصر للصلاة الرباعية.

---

(١) المرجع السابق (١٧٧/٢٢)

ومن فوائد دقائق البيان أن عطف سبحانه وتعالى وضع الميزان على رفع السماء، بما يعطي دلالة على تعظيم العدل وقيمته، ومنزلته التي تقابل عظمة وجلال ارتفاع السماء وعلوها، وبما يفيد أن علو ومكانة ومنزلة العدل في الميزان لا تقل عن مكانة ومنزلة السماء عند ربكم جَلَّ في علاه. ومن جماليات ودقائق البيان كذلك هو مقابلة الوضع بالارتفاع، ومقابلة السماء بالميزان. فبالرغم من هذه المقابلة المتباينة إلا أن كلاهما من عند الله تعالى، ومن تدبيره، وأن قيمة الأمور عند الله تعالى بتطبيقها وليس فقط بموقعها ومكانها.

ثم نهى تبارك وتعالى عن الطغيان في الميزان، فيعلل سبحانه وتعالى وضعه للميزان من أجل ألا تتجاوزوا فيه الحد من العدل. فقال عَزَّ وجل ﴿ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ ﴾ حتى لا تُنقصوا وتنحرفوا عن العدل. فوضع الميزان وأوجب العدل لئلا تعتدوا وتتجاوزوه بالبخس فيه. فلذلك وضع وأوجب العدل من أجل الوقوف على حده، فلا تتجاوزوه بالحيف والظلم. فأمر به ليتحقق به الإنصاف بينكم. ليمتنع به الجور والظلم.

ثم يؤكد ذلك سبحانه وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾ فاجعلوا ميزان العدل قائماً. فقد أعط الأمر بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَأَقِيمُواْ ﴾ معنى تحقيق الوزن بالعدل كاملاً كما يجب، فاجعلوا موازينكم قائمة وظاهرة في إقامة العدل، سواء في أوزانكم، أو شروطكم، أو مطالبكم، أو في منطق حكمكم، وقضائكم، فهو أمر يستوفي الاجتهاد في تحقيق إقامة كمال العدل. وسماه سبحانه وتعالى ﴿ ٱلْوَزْنَ ﴾ لأن الوزن يقتضي الموازنة التي ينتفي بها الحيف والظلم والغش، والتلاعب على أي وجه وصفة كانت، ويدخل في ذلك التغرير بالغير. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والإقامة: جعل الشيء قائماً، وهو تمثيل للإتيان به على أكمل ما يُراد له[1] ثم يؤكد تبارك وتعالى أن يكون ذلك الوزن ﴿ بِٱلْقِسْطِ ﴾ الذي هو كمال العدل، الذي لا جور ولا بخس فيه. فلم يجعل الأمر سبحانه وتعالى لاجتهاد العباد، وأهوائهم، بل جعله قائماً على وجوب العدل. وكل ذلك من أجل أن يمنع طمع النفوس، ويحول بينها وبين شهواتها وحيفها وشحها، ومحاباتها عندما يكون الشأن لها، والبخس إذا كان الحق لغيرها.

وبعد الأمر بإقامة الوزن بالعدل ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ يؤكد سبحانه وتعالى ذلك بوجوب كمال إقامة العدل من خلال النهي عن ضده ﴿ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾ ولا تجعلوا ميزان العدل في خسارة، بل اجعلوه في كمال الوفاء. ففي قوله تعالى ﴿ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾ النهي المطلق عن تطفيفه، والتلاعب به، فلا تجعلوا ميزان العدل خاسراً، بل ارفعوه بكمال الوفاء. حيث تكون خسارة الميزان بإنقاصه من جهة

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١١/١٨٩)

المستفيد، سواء عند البيع، أو عند اغتنام ضعف الطرف الآخر، أو حال غفلة وجهل المقابل. بما يلزم مراقبة الله تعالى في الميزان على أي وجه كان، سواء في البيع أو الشراء، أو عند التقاضي والقضاء بين الناس، أو في الحقوق الأخرى التي لا تحصى دوائرها ومجالاتها بين الناس. مما يفيد وجوب مراقبة الله تعالى في تعاملكم مع غيركم، وفي فصلكم بين الناس، وفي شؤون حياتكم، بأن تراقبوا الله تعالى، حتى وإن غفل الطرف الآخر عن حقه، فالعدل فيه واجب من ربكم عليكم. وبما يفيد تحريم الظلم المضاد للعدل. مما يبين أن هذا الدين هو دين العدل، ودين إحقاق الحقوق، ودين الكمال في كل أمر وشأن، وأنه دين الله تعالى الذي لا شك ولا ريب فيه أبداً.

ثم ينتقل البيان من الله تعالى إلى جانب آخر من الإنعام على العباد، والذي يلزم شكره وطاعته سبحانه وتعالى، والامتثال لشريعته جَلَّ جلاله. فقال تعالى ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ فالأنام هم الخلق من الإنسان والحيوان والدواب والحشرات. فمن إنعامه عليكم أيها الناس أن جعل الأرض مذللة وخاضعة لكم، فتمشون عليها من غير مصاعب ولا متاعب، ولا مشقة بسببها. فقد جعل فيها فجاجاً من الممرات والطرق الواسعة. فيشمل ذلك الطرق التي بين الجبال، والطرق الأخرى التي في الأرض. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وَطَّأَهَا للخلق، وهم الأنام، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، كما نقله ابن جرير. وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً عن معنى الأنام: كل شيء فيه الروح[1] فالأنام هم الخلق من الإنسان والحيوان والدواب والحشرات. وهذا إكرام من الله تعالى للإنسان ولما يحتاج إليه من المخلوقات، إذ جعل سبحانه وتعالى علة وسبب تذليل وتمهيد الأرض من أجل الخلق. مما يستوجب شكره سبحانه وتعالى، وطاعته، والالتزام بدينه القويم. فتوضيح السبب والعلل هو لغاية تفهيم الإنسان بآلاء الله تعالى عليه. مما يستوجب على العباد الانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك.

ثم يذكر تبارك وتعالى أن من تمام إنعامه أن جعل فيها ما يحتاجه الإنسان من المطاعم التي تميزت بالتنوع والكثرة، واللذة، فقال تعالى ﴿ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴾ وفي هذه الأرض المبسوطة لكم أيها الناس ﴿ فَٰكِهَةٌ ﴾ أي: ما يتلذذ ويتفكه به من جميع أنواع وألوان وأحجام الثمار، كالبرتقال والتفاح والعنب، ونحو ذلك من الفواكه. ثم أفرد النخل بعد الفاكهة، للفت الانتباه إليه، وإلى ما تميز به، فقال تعالى ﴿ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴾ والنخل ذات الأوعية المتصفة بالالتفاف على ثمرها في أول طلعها، فثمارها في كنف من الأغطية التي تحفظها حتى ينمو ثمرها بداخلها شيئاً فشيئاً. ثم يتفطر ذلك الوعاء، ويتشقق عن ثماره، ليُكمل بقية نضجه خارج أكنافه، فالشمس وحرارتها وسيلة لإكمال نضوجه. فإنه غاية الإبداع والعناية بما خلق، وبمراحل

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/١٧٩-١٨٠)

نضجه واستوائه. أفلا يدل ذلك على عظمة الخالق؟ وعلى عظمة قدرته؟ وجلال تدبيره البديع الذي ليس له مثيل؟ ألا يدل ذلك على إكرامه للإنسان؟ فإنه هو المعني بهذا الإنعام. فمن أي وجه نظرت للنخل وثمارها استعظمت الخالق عَزَّ وجل. فاعبدوه، ووحدوه سبحانه وتعالى، واشكروه بطاعته عَزَّ وجل واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، وتمسكوا بدينه القويم. فإن الذي أبدع وأظهر آياته وآلائه فيما خلقه لكم يستوجب منكم الإيمان بالغيب كله، ومنه البعث بعد الموت، والحساب والجزاء، والجنة والنار.

ثم يذكر تبارك وتعالى أن من مزيد إنعامه الذي قد تمثلت فيه عظمته وإحسانه وآلائه وآياته الباهرة، هو أن خلق لكم الحبوب ذات العصف والريحان. فقال تعالى ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾ فقد خلق لكم الحب، الذي يشمل جميع أنواع الحبوب، كالشعير والبر، والذرة، والدخن، والقمح، وغير ذلك من أصنافه الكثيرة. وقد وصف سبحانه وتعالى هذا الحب بأنه ﴿ ذُو ٱلْعَصْفِ ﴾ أي: أن ورق زرعه تعصف به الرياح فيتساقط. والوصف الثاني العجيب: هو التعميم لنفعه، فسماه ﴿ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾ وهو عموم الرزق. قال الفراء رحمه الله تعالى: الريحان في كلام العرب: الرزق. يقولون خرجنا نطلب ريحان الله[١] وقد رجح الطبري رحمه الله تعالى أنه الرزق[٢] وفي تعيين وتحديد الحب وذلك على اعتبار أنه أساس أقوات الناس. ليتبين بذلك دقة الوصف، ودقة التحديد والاختيار مع دقة تحرير البيان المعجز في سياقه وتراكيب ألفاظه.

كما أن في وصف الحب بأنه ﴿ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾ لفت الانتباه إلى ما خصه الله تعالى بهذه الخصوصية عن غيره من النباتات، ليدرك الْمُخَاطَبون عظيم قدرة الله تعالى، وجمال ودقة تدبيره بالكيفية والدقة التي يشاء أن تكون عليه مخلوقاته، فلا يعجز عن شيء أبداً سبحانه وتعالى، ومن ذلك ما سيكون من البعث والنشور، والحساب والجزاء.

ومن غزارة الدلالة أن ﴿ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾ استوعب معناه الكثير من المعاني التي تعطي غزارة في البيان، كما هي غزارة تنوع الإنعام، والخلق من الحب، وما كان قبلها من أنواع الأرزاق. فقد ورد من معاني الريحان: أنها الورق. وأنه الرزق. وأنه خضرة الزرع، وعلى هذا سُمي ريحاناً لاستراحة النفس بالنظر إليه. وقيل: أنه ريحانكم هذا الذي يُشَمُّ[٣] وهذا من غزارة البيان الذي استجمع تلك الدلالات، فعلى أي وجه نظر المتأمل،

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٥٦/٧)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨٩/٢٢)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٥٦/٧-٢٥٧)

وتأمل، وجد تلك الحقائق كما أظهرها السياق. ليظهر بذلك الإعجاز في اختيار الألفاظ التي تستوعب كمال المراد من غير تضاد، كما هو الإعجاز في الخلق والتدبير. فسبحان الله العظيم.

ثم يتجه البيان الكريم إلى السؤال الذي يكبت به المكذبين والمنكرين، ويزداد به لوماً وعتاباً على شركهم وكفرهم، وتكذيبهم بالرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه النعم تشككون أيها الْمُخَاطَبون، فالآلاء من قوله تعالى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ ﴾ تعني الإنعام، فإن نعم الله تعالى واضحة، بما يوجب الإيمان والتصديق. ويشمل الإنعام كذلك جميع الآيات والبراهين، لأنها نعمة من الله تعالى، بأن يعظ بها العباد حتى يخرجوا من الكفر إلى الإيمان. وبالتالي فإن معناها: هو: فبأي هذه الآيات من الخلق والتدبير العظيم تكذبون؟ سؤال تقريري، يقرر بأنه ليس هناك أي مجال للتكذيب بشيء من إنعامه عليكم ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ومعنى ﴿ تُكَذِّبَانِ ﴾ الذي ورد بصيغة المثنى هو: لبيان أن المخاطبين به الإنس والجان. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس من هذه النعم تُكذبان[1] بما يفيد أن جميع ما أنعمنا به عليكم من النعم، ومنها نزول القرآن، وتسهيل معانيه وألفاظه وحفظه، وفهمه وترتيله، وتحصيل البيان للإنسان الذي يتمكن به من معرفته، ونقله وتعليمه لغيره، فإنها نعم لا يمكن إنكارها.

وكذلك تشمل دلالة الآلاء الآيات الكونية، وما خلق من النبات والزروع، وما فيها من عظيم خصائص ومراحل تكوينها وخلقها، وغيرها من الآيات، فإنه ليس فيها ما يمكن لأحد أن ينكرها بدليل. بل إنها مُوجبة للتصديق بها. فبأي هذه النعم تتشككون يا أيها الثقلان في توحيد الله تعالى وإفراده بالعبودية، وبالبعث والحساب والجزاء، والجنة والنار. فهو سؤال يستثير العقل والفكر بأن يمعن هذا الإنسان في كثرة هذه الآلاء التي تحيط به من كل وجه، ومن كل نوع، ومن ذلك نِعَم المعيشة، ونعم الدلالات، والعبر، والآيات الكونية، وما أنعم به سبحانه وتعالى في الأنفس، وما وهبها من القدرات، وما تفضل به من نزول القرآن العظيم. فجميعها تؤكد بأنه لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى.

وقد ورد تكرار هذه الآية واحداً وثلاثين مرة، ولكن لها مع كل ما قبلها من الآيات ترابطاً وأثراً في استثارة الذهن والفكر نحو التأمل في إنعام الله عَزَّ وجل، والذي يشكل منهجاً في كيفية معالجة تكذيب المنكرين، وتقريرهم ببطلان تكذيبهم، وقيدهم ودفعهم إلى قوة الاعتراف بالحق الذي أظهره الله تعالى بقوة الإنعام من الأرزاق، والآيات الكونية، والآيات البيانية من كتابه القرآن العظيم. فكان أسلوبها أسلوباً بديعاً وعظيما من كل وجه.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨٩/٢٢)

﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾

وبعد أن أظهر الله تعالى آلائه العظيمة ابتداء من إنزال القرآن، وتيسير تعليمه للإنسان، وتمييزهم بنعمة البيان، وما لفت إليه من مظاهر خلقه للشمس والقمر والنجم والشجر والسماء، ينتقل السياق في سورة الرحمن إلى مظاهر خلق الإنسان، فقال تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴾ فبدأ تبارك وتعالى بأصل الإنسان الذي يمثلهم أبوهم آدم عليه السلام ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴾ أي: آدم أبو البشرية عليه السلام ﴿ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴾ والصلصال هو: الطين اليابس، الذي لم تصبه النار، فإذا نقرته صلَّ، فسمعت له صلصلة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة، وأبو عبيدة، وابن قتيبة رحمهم الله تعالى. وأما الحمأ: فقال أبو عبيدة رحمه الله تعالى: هو جمع حَمْأة، وهو الطين المتغير. والمسنون: قال عنه ابن قتيبة رحمه الله تعالى: المتغير الرائحة(١) ثم وصفه سبحانه وتعالى بأنه ﴿كَٱلۡفَخَّارِ ﴾ وهو كحال الطين عندما يتحول إلى خزف مجوف بعد أن صار يابساً. قال القرطبي رحمه الله تعالى: خلق الإنسان باتفاق أهل التأويل يعني آدم. من صلصال كالفخار، الصلصال: الطين اليابس، الذي يسمع له صلصله، شبهه بالفخار الذي طُبخ، وقيل هو طين خُلِط برمل(٢) فما أحوج الإنسان أن يتأمل في أساس خلقته، وأصله الذي خُلِق منه، ليعتبر بذلك، فلا يتكبر، ويسبح لله تعالى على هذا التكوين العجيب، ويُذعن لربه عَزَّ وجل بالطاعة والامتثال. ويؤمن بأن الله تعالى على كل شيء قدير، ويؤمن بالغيب كله، ومن ذلك البعث بعد الموت، والحساب والجزاء، والجنة والنار.

ثم يذكر تبارك وتعالى أصل خلق الجان، فقال تعالى ﴿ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴾ والجان هو إبليس وما تفرع عنه من الجن. قال ابن عباس رضي الله عنهما: خلقه من لهب النار، من أحسن

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٩١/٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠٥/١٧)

النار. وفي رواية أخرى: أنه لسان النار الذي يكون في طرفها، إذا أُلهبت. وعن مجاهد رحمه الله تعالى: اللهب الأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أُوقدت[١] أي: خالص النار ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ والمرج هو الاختلاط، أي: من اختلاط لهب النار. فمن كانت قدرته بهذه العظمة، فإنه لا يعجزه إعادتهم بعد فنائهم. فأين محور العجز في ذلك؟ بما يستثير عندهم التأمل والتفكر، والقياس، والتدقيق، فجميع المشاهد من مخلوقات الله تعالى، ومن خلق الإنسان، وخلق الجان تبين وتُعلن أن الله تعالى على كل شيء قدير، وأنه لا يعجزه شيء أبداً، وأنه يجب على المخلوق بأن لا يقيس قدرة الخالق على المخلوق، لأنه هو الذي أنشأ أصل الكون من العدم.

ثم يقول تبارك وتعالى بعد بيان هذا الخلق العظيم من مادتين مختلفتين ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه النعم تشككون أيها الْمُخَاطَبون، من الجن والإنس؟ سؤال يقررهم بأنكم أيها الثقلان لا تستطيعون التكذيب بالحقائق مما أنعمنا عليكم من نِعَم البيان، وغيرها من الأرزاق والآيات والحجج والبراهين. بما يفيد: إذاً عليكم بكمال الطاعة والإذعان لربكم وحده لا شريك له. فهو سؤال تقريري، يُعَلِّم العباد كيف يفكرون، وكيف يستنتجون، وكيف يُعَلِّمُون ويدربون عقولهم على التفكير الصحيح الذي يتوصلون به إلى الحقائق، ويبرهن لهم بهذا المنهج الاستدلالي على أهمية القياس والاستنتاج والاستنباط الصحيح للحصول على الدلائل الصائبة الحقة. مما يبين أن الخلق والتكوين زاخر بكل ما يقوي الإيمان في كل ناحية من نواحيه، وأن دين الله تعالى قائم على الحقائق والبراهين. ويؤسس لعباده منهج البراهين والاستدلال. بل ويعلمهم كيف يفكرون، وكيف يقيسون ويحللون، وكيف يستنبطون، وكيف يهتدون. فسبحان الله تعالى الذي علم الإنسان ما لم يعلم.

ومن آلاء الله تعالى وإنعامه وإفضاله وعظيم آياته أنه جعل المشرق والمغرب. فقال تعالى ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ إن ربكم الذي خلقكم من طين كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار هو أيضاً ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾ أي: هما مشرق الشمس في الصيف والشتاء، وفي هذا بيان لمنازل شروقها، وكذلك هو ﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ وهما مغرب الشمس في الصيف والشتاء. وفي هذا بيان لمنازل غروبها. فهو سبحانه وتعالى ربها ومدبرها في المنازل التي تنزلها صيفاً وشتاء. فربكم الذي خلقكم هو المدبر والقَيِّم على الشروق والغروب. وفي هذه التثنية للشروق والغروب ما يفيد شد الذهن، ولفت الانتباه لمنازل الشروق والغروب الرئيسة.

وهذا على اعتبار أن للشروق غروب. وإلا منازلها قد وردت بالجمع في سورة الصفات، إذ قال تعالى ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾ وفي سورة المعارج، قال تعالى ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ قال

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/١٩٥-١٩٦)

السدي رحمه الله تعالى: المشارق ثلاثمائة وستون مشرقاً، والمغارب مثلها، على عدد أيام السنة[١] ففي ذلك شد الانتباه لمنازل الشروق التي تشرق منه الشمس، فكل يوم تشرق من منزل من منازلها، وتغيب في منزل يتوافق مع منزل شروقها. مما يبين قدرة الخالق العظيمة سبحانه وتعالى، ودقة نظامه للكون، الذي منه نظام الشروق، ويتبعه الغروب. فسبحان الله تعالى، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له. فمن كان هذا خلقه وهذا تدبيره العظيم في مُلكه، فلا تكون العبادة إلا له وحده لا شريك له، خالصة من الشرك والرياء والسمعة، خوفاً من عقابه، ورجاء رحمته. مما يستوجب طاعته، واتباع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، والإيمان بالغيب كله.

ثم يقول تبارك وتعالى بعد بيان نعمة وآية حركة شروق الشمس وغروبها ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات والنعم تشككون أيها الْمُخَاطَبون، من الجن والإنس؟ سؤال يقررهم بأنكم أيها الثقلان لا تستطيعون التكذيب بالحقائق. وبما يفيد: إذاً عليكم بكمال الطاعة والإذعان لربكم وحده لا شريك له. فهو سؤال تقريري يقررهم بالحقائق التي تُلزمهم الطاعة له سبحانه وتعالى، ولرسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم ينتقل البيان إلى لفت الانتباه إلى عظيم تدبيره في الفصل بين المياه، ومنع تأثير بعضها على مكونات البعض الآخر، بالرغم من تواصلها، وعظمة أمواجها في البحار والمحيطات والأنهار، فيقول تبارك وتعالى ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ فإنه سبحانه وتعالى هو لا غيره الذي أرسل وأمرج أحد البحرين على الآخر، فأرسل البحر العذب على البحر المالح، فأفاض الماء العذب على المالح، فاختلط بعضهما ببعض ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ فهو وحده الذي أجراهما، بفعل وأسلوب المرج ﴿مَرَجَ ﴾ وهو الخلط والإرسال ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ قال مجاهد رحمه الله تعالى: أفاض أحدهما على الآخر[٢] فخلط أحدهما بالآخر. فقد خلط بالعذب الفرات من مياه الأنهار والأمطار بالمالح الأجاج من مياه البحار. ومع هذا الاختلاط بين ماء النهر الحلو وماء البحر المالح فإنه يمنع عَزَّ وجل التأثير، فبقدرته سبحانه وتعالى يمنع تأثرهما ببعض، بعملية الحجز العجيبة والدقيقة. فحجز ماء كل واحد منهما عن الآخر، فلا البحر بقوته وقوة أمواجه وكثرته يؤثر في مياه الأنهار، فيجعلها مالحة، ولا الأنهار بمياهها العذبة المتدفقة في البحار تؤثر في ملوحة مياه البحر، بالرغم من كثرة تدفقها من غير توقف.

ثم يذكر تبارك وتعالى قوته وقدرته في إيجاد المانع الحاجز لذلك، فقال تعالى ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ أي: جعل بينهما حاجزاً. فجعل بين هذا الماء العذب وهذا الماء المالح الأجاج حاجزاً فلا يختلطان، بما

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٦/٦)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٧٢/١٧)

يجعل كل واحد منهما يلزم صفته التي خُلِق عليها. وورد البيان في منع تعدي أحدهما على الآخر بالبغي ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ وهو الظلم الذي يترتب عليه سلب أحدهما لخصائص الآخر. فالمياه العذبة على كثرة تدفقها وجريانها الذي لا ينقطع، فإنها لا تغير خصائص مياه البحار والمحيطات المالحة. وكذلك المحيطات والبحار على قوتها وضخامتها، وعظمة أمواجها العاتية فإنها لا تتعدى على الأنهار فتغير طعمها من الحلاوة إلى الملوحة. وذلك بقوة سلطانه وكمال قدرته وعظيم تدبيره سبحانه وتعالى. مما يؤكد ويبين دلالة العدل ومنع البغي الذي ورد في قوله تعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ ليتبين كمال العدل في منع البغي بسبب اختلاطهما، فيلتقيان من غير بغي وتعدي. فسبحان الله العظيم الجليل.

ليدل هذا على قوة وكمال قدرته عَزَّ وجل، وعجائب صنعه الدال على أنه رب كل شيء ومالكه، والمتصرف فيه بدقة عجيبة ومذهلة. وأنه إذ أراد شيئاً قدره بما يشاء من القدرة والمشيئة سبحانه وتعالى. كما أن في هذا امتنان على العباد بهذه النعمة العظيمة، فلا يطغى ماء البحر بكثرته وقوة أمواجه على مياه الأنهار، فيجعلها مالحة لهم، فلا يسقون منها ولا يشربون، بل إنها هي التي تصب فيه ماءها العذب الذي لا يؤثر في ملوحة البحر على كثرة تدفقها، فمهما صبت الأنهار وتواصلت في إرسال مائها إلى البحار فإن مياه البحار لا تتأثر، فتبقى على ملوحتها كما هي. فمن منع هذا التأثير غير الله تعالى. مما يبين غزارة آيات الله تعالى وكثرتها، والتي توجب على العباد الاعتبار والانكسار لخالقهم بطاعته وتوحيده، وطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يقول تبارك وتعالى بعد بيان نعمة وآية إدخال مياه البحرين في بعضهما البعض من غير أن يبغي أحدهما على الآخر، فلا مياه الأنهار والسيول تغيير طعم مياه البحار المالحة، ولا مياه البحار المالحة تطغى على مياه الأنهار بقوتها فتجعلها مالحة، فيقول تبارك وتعالى بما يقرر به الثقلين بعظمته وعظمة آياته في خلقه ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة والنعم تشككون أيها الْمُخَاطَبون، من الجن والإنس؟ هل تشكون وترتابون في ذلك؟ سؤال يقررهم بأنكم لا تستطيعون التكذيب بالحقائق. بما يفيد: إذاً عليكم بكمال الطاعة والإذعان لربكم وحده لا شريك له. فهو سؤال تقريري، يقررهم بالحقائق. مما يبين قدرة الخالق العظيمة سبحانه وتعالى، ودقة نظامه للكون، الذي منه نظام تداخل المياه مع بعضها البعض، من غير أن يتعدى نظام أحدهم على الآخر، فيبغي عليه بسلب خصائصه. فسبحان الله تعالى، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له. فمن كان هذا خلقه وهذا تدبيره العظيم في ملكه، فلا تكون العبادة إلا له وحده لا شريك له، خالصة من الشرك والرياء والسمعة، خوفاً من عقابه، ورجاء رحمته. وأنه على كل شيء قدير، ومن ذلك البعث والحساب والجزاء، والجنة والنار.

ثم يذكر تبارك وتعالى المزيد من آيات إنعامه على عباده. فإن من عظيم إنعامه وتدبيره سبحانه وتعالى أن أخرج من تلك البحار والأنهار اللآلئ المبهجة في ألوانها وجميل أشكالها، فقال عَزَّ وجل ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ فربكم أيها الثقلان ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ﴾ أي: من البحرين المختلفين في مكونات مياههما. فَيُخرج بقدرته وتدبيره من هذه البحار ﴿ ٱللُّؤْلُؤُ ﴾ وهو ما عظم من الدُّر، وهو الْخَرَز الكبير، اللماع، المتلألئ ﴿ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ هو ما صغر منه، وهو الخرز الأحمر الصغير المتلألئ. ثم يقول تبارك وتعالى بعد بيان نعمة وآية إخراج اللؤلؤ والمرجان من تلك المياه ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة والإنعام، وجمال ما يخرج من اللؤلؤ والمرجان تشككون أيها الْمُخَاطَبون، من الجن والإنس؟ هل تَشُكُّون وترتابون في ذلك؟ في أن تلك النعمة آية من آيات قدرة ربكم؟ سؤال يقررهم بأنكم أيها الثقلان من الإنس والجن لا تستطيعون التكذيب بالحقائق. بما يفيد: إذاً عليكم بكمال الطاعة والإذعان لربكم وحده لا شريك له. فهو سؤال تقريري بأنه لا يمكن لكم إنكار ذلك. مما يبين قدرة الخالق العظيمة سبحانه وتعالى، ودقة نظامه للكون، والذي منه نظام إخراج تلك الزينة التي يتعجب الناس من جمالها ورونقها. مما يبين أهمية التفكر في مخلوقات الله تعالى، فإنها عالم لا تنتهي عجائبه، الدالة على ربوبية الله وتعالى وألوهيته، وأنه لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى. ووجوب التصديق بهذا القرآن الذي تطابق حقائقه حقائق الكون، فتوجب الإيمان والتصديق برسالة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم ينقل الله تعالى بالْمُخَاطَبين إلى عظيم إنعامه بأن أجرى السفن الضخمة في البحار، فقال تعالى ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ فلربكم السفن الضخمة التي تجري بمنافع العباد في البحار، التي في هيئتها كالجبال من ضخامتها. وهي رافعة أشرعتها في وسط البحار. فمن كبر حجمها وعظمتها وعلوها فوق مياه البحار، فإنها ﴿ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ أي: بارزة عالية، كالجبال واضحة المعالم على اليابسة. ومن دقائق البيان العظيم أن سماها سبحانه وتعالى بقوة سيرها ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ﴾ التي تجري على سطح البحار، وبما يُظهر جليل خدمتها للعباد، بسرعتها في تحقيق مآربهم ومقاصدهم من نقل أمتعتهم وتجارتهم من مكان إلى مكان.

وكذلك وصفها سبحانه وتعالى ﴿ ٱلْمُنشَـَٔاتُ ﴾ أي: هي التي أُنشئت، فتم بناؤها، وذلك بأن أقدركم ربكم ومكنكم من ذلك. قال قتادة رحمه الله تعالى: أي: المخلوقات للجري، مأخوذ من الإنشاء[١] فهي منشأة بما

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٠٧/١٧)

هدى الله تعالى الإنسان إلى بنائها. ولذلك نسب سبحانه وتعالى ذلك له عَزَّ وجل، فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَلَهُ ﴾ فإنها لله تعالى ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ لأنه سبحانه وتعالى هو الذي امتن على العباد بصناعتها، كما عَلَّمَ نوح عليه السلام صناعة السفينة التي أنجاه الله تعالى ومن معه من المؤمنين بها. وهو الذي سخر البحر لها لتبخر فوقه وعلى سطحه، وكأنها علم بارز واضح في البحر كالجبال البارزة الواضحة في اليابسة.

ثم يقول تبارك وتعالى بعد بيان نعمة وآية السفن التي تبخر بجريانها على سطح البحار ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة وهذا الإنعام بما سخره لكم من جريان السفن على سطح البحار، فتحملكم وأمتعتكم وتجارتكم، لتنقلكم من مكان إلى آخر تُنكرون. فبأي هذه الآيات والإنعام تُشَكِكُون أيها الْمُخَاطَبون، من الجن والإنس؟ هل تَشُكُّون وترتابون في ذلك؟ سؤال يقررهم بأنكم أيها الثقلان لا تستطيعون التكذيب بالحقائق. بما يفيد: إذاً عليكم بكمال الطاعة والإذعان لربكم وحده لا شريك له. فهو سؤال تقريري. مما يبين قدرة الخالق العظيمة سبحانه وتعالى، ودقة نظامه للكون، والذي منه نظام جريان السفن العظيمة فوق مياه البحار. مما يبين أهمية التأمل والتفكر في مخلوقات الله تعالى، فإنها عالم لا تنتهي عجائبه الدالة على ربوبية الله وتعالى وألوهيته، وأنه لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى. ووجوب التصديق بهذا القرآن الذي تتطابق حقائقه مع حقائق الكون، وما يترتب على ذلك من وجوب الإيمان والتصديق برسالة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

فبعد أن أظهر تبارك وتعالى كمال قدرته وإنعامه وتفضله بما أبان وأوضح من الآيات الواضحات، والبراهين الساطعات على أنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، ينقل الْمُخَاطَبين في تدرج من البيان المملوء والزاخر بالحجج إلى وجوب الإيمان بالبعث، وما يتبعه من الحساب والجزاء، وما يترتب على ذلك من وجوب الطاعة والامتثال، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ فإن جميع ما على الأرض من الخلائق سيفنون ويموتون، وينتهون، فلا يبقى إلا الله تبارك وتعالى. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يخبر تعالى بأن جميع أهل

الأرض سيذهبون، ويموتون أجمعون. وكذلك أهل السماوات إلا من شاء الله تعالى، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم، فإن الله وحده هو الحي الذي لا يموت[١] بما يفيد أن دلائل قدرته في الخلق والتقدير التي بينها لكم، تُثبت لكم أن ما يقوله لكم سبحانه وتعالى عن الغيب هو حقيقة لا ريب ولا شك فيها، فإنه في نهاية الدنيا سيفنى كل شيء. وأن البقاء له وحده لا شريك له ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ ويبقى ربك صاحب الوجه الكريم العظيم، فأثبت تبارك وتعالى لذاته المقدسة الوجه الذي ليس كمثله شيء، فتعالى عن مشابهة المخلوقين له عَزَّ في علاه، كما قال تعالى في سورة الشورى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ ليس هناك شبيه ولا مثيل لربكم في كل شيء، فاستوعب النفي إثبات الكمال الذي لا يُقاس عليه بأحد من خلقه سبحانه وتعالى.

والمتصف بأنه ﴿ ذُو ٱلْجَلَٰلِ ﴾ صاحب العظمة، فليس هناك عظيم متفرد بها إلا ربكم أيها الْمُخَاطَبون، فهو وحده المتصف بأنه ذو الكرم على جميع خلقه ﴿ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ فربكم هو المتصف بكمال إكرامه على خلقه بما أنعم عليهم من النعم التي لا تُعد ولا تحصى. وبما يفيد فابتغوا كرمه أيها الْمُخَاطَبُون، وذلك بطاعته والامتثال له، فيكرمكم بالعطاء والعون والمعية في الدنيا، وبالجنة في الآخرة. فهو تحضيض للعباد بصفتي ﴿ ذُو ٱلْجَلَٰلِ ﴾ التي تُوجِب الرهبة لجلاله وعظمته وهيبته ﴿ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ الذي يُوجب الطاعة والمحبة له سبحانه وتعالى، والطمع والرغبة فيما عنده، لأنه القادر على تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة. فابتغوها واطلبوها من ربكم بطاعته، وطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وفي هذا غاية الحكمة والإبداع في التوازن بين الترهيب والترغيب. من خلال بيان عظمته وجلاله مع بيان رحمته التي تظهر في كريم عطائه سبحانه وتعالى. اللهم أكرمنا بكل خير، في الدنيا والآخرة يا رب العالمين.

ثم يتكرر للمرة السابعة قوله تعالى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة، وهذا الإنعام، وهذه البينات من الحجج والبراهين تنكرون نهاية الحياة الدنيا، وفناء المخلوقات، وأنه لا يبقى إلا ربكم صاحب العظمة والجلال والإكرام، إذ ليس هناك عظيم متفرد بها إلا ربكم أيها الْمُخَاطَبون ﴿ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ المتصف بكمال الجلال والإكرام على خلقه بما أنعم عليهم من النعم التي لا تُعد ولا تحصى. فبأي هذه تُشَكِّكُون أيها الْمُخَاطَبون، من الجن والإنس؟ هل تَشُكُّون وترتابون في ذلك؟ سؤال يقررهم بأنكم أيها الثقلان إلى الفناء من الدنيا زائلون. وأنكم لا تستطيعون التكذيب بالحقائق التي تؤكد ذلك. فعليكم بكمال الطاعة

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٩٢/٤)

والإذعان لربكم وحده لا شريك له، والذي ستعودون إليه بالبعث والحساب والجزاء بالجنة للمطيع وبالنار للعاصي، فكل بحسب ما اكتسب. فهو سؤال تقريري. مما يبين قوة وقدرة الخالق العظيمة سبحانه وتعالى، ودقة نظامه للكون، بما فيه من الفناء والانتقال للدار الآخرة، مما يبين أهمية التأمل والتفكر في المآل بعد زوال هذه الدنيا الفانية. فكما أن الدنيا عالم عظيم فإن الآخرة عالم لا ينتهي بما أعده الله تعالى للمتقين من السعادة والجنان، وما أعده للكافرين من النار وسوء العذاب. مما يُوجب التصديق بهذا القرآن الذي تتطابق حقائقه مع حقائق الكون، وما يترتب عليه من وجوب الإيمان والتصديق برسالة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن كمال غِنَاه عمن سواه، وافتقار خلقه إليه من غير انقطاع، فإنه فقر لا يتوقف لحظة واحدة، فَيُظْهِر سبحانه وتعالى السؤال له عَزَّ وجل من أهل السماوات والأرض، فيقول عَزَّ وجل ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ فإن جميع أهل السماوات والأرض فقراء إليه سبحانه وتعالى، فيسألونه حاجاتهم من كل شيء، ومن ذلك الأرزاق، والمغفرة والرحمة، والجنة. وذكر القرطبي رحمه الله تعالى: أن أهل السماوات يسألونه سبحانه وتعالى الرحمة، ومن في الأرض يسألونه الرزق والرحمة[1] فحتى الملائكة تسأله لمن في الأرض من المؤمنين، وهو الغني الْمُغْنِي، وهم الفقراء إلى ربهم سبحانه وتعالى. كما ورد في سورة غافر، حيث قال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فالملائكة الذين يحملون عرش الرحمن، الذي هو أعظم المخلوقات وسقفها. وكذلك الملائكة الذين هم من حول العرش يسبحون وينزهون ويذكرون ربهم بالتمجيد والتحميد، فإنهم يسألون ربهم. وقال تعالى في سورة الشورى عن الملائكة الكرام ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فمن عظمة الرحمن تبارك وتعالى، وجَلَّ جلاله تكاد السماوات يتفطرن خشوعاً وطاعة وهيبة ورهبة وتذللاً، والملائكة يسبحون بالثناء والتمجيد لله تعالى، بل ويستغفرون لمن في الأرض من العباد. بينما الإنسان على ضعفه فهو يجادل ويعارض الحق.

ثم يذكر عَزَّ وجل شأن تدبيره لخلقه، فيقول جَلَّ جلاله، فإن ربكم ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ فكل وقت له شأن في سَوق المقادير سبحانه وتعالى، فيغفر ويعطي، ويعافي ويشفي، ويُغْني ويُفقر، ويدبر شؤون خلقه بحكمته ورحمته وكرمه، ويحي ويميت، ويعطي ويُؤتي، ويمنع، ويرفع ويعز من يشاء اعزازه، ويُذل من يشاء

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١٧)

إذلاله، ويعزل من يشاء عزله،. فله كل وقت شأن في سوق المقادير. مما يبين عظمة سلطانه، وحكمته في التقدير والتصريف، وأن له الملك كله وحده لا شريك له في ملكه وقضائه وتقديره وتدبيره، فأطيعوا ربكم أيها الْمُخَاطَبُون، ووحدوه واعبدوه كما أمركم، واسألوه، ولوذوا به، فإن جميع الملك والشأن له وحده لا شريك له.

ثم يقول تبارك وتعالى بعد بيان إنعامه على خلقه، وفقر خلقه إليه ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات تُنكرون؟ فهل تنكرون فقركم وحاجتكم إلى ربكم. فهل تُشَكِكُون أيها الْمُخَاطَبون من الجن والإنس في ذلك؟ فهل تستطيعون أن تُغنوا أنفسكم من غير ربكم سبحانه وتعالى؟ بما يدبره لكم من الغيث والأمطار والإنبات وغيره من التدبير. فهل تَشُكُّون وترتابون في ذلك؟ سؤال يقررهم بأنكم أيها الثقلان لا تستطيعون التكذيب بحقائق السؤال والافتقار إلى الله سبحانه وتعالى. بما يفيد: إذاً عليكم بكمال الطاعة والإذعان لربكم وحده لا شريك له. فهو سؤال تقريري. مما يبين غناه عَزَّ وجل عن خلقه، وفقر خلقه إليه جَلَّ في علاه. ومما يبين أهمية التأمل والتفكر في عطاء الله تعالى، وتسخيره، وتقليب الأمور للعباد. بما يدل على ربوبية الله تعالى وألوهيته، وأنه لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى. ووجوب التصديق بهذا القرآن الذي تتطابق حقائقه مع حقائق المخلوقات في فقرها إلى ربها سبحانه وتعالى، وما يترتب على ذلك من وجوب الإيمان والتصديق برسالة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يقول جَلَّ جلاله متوعداً بيوم الحساب لمن كفر ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ سنقصد لحسابكم أيها الثقلان. أي: الإنس والجن. وهذا على سبيل الوعيد والتهديد، وهو من استخدام العرب، لإظهار الوعيد، والاهتمام. لأن الله تعالى لا يشغله شيء عن شيء، ولا يحتاج ليتفرغ لشيء عن شيء. قال الفراء رحمه الله تعالى: هذا وعيد من الله تعالى، لأنه لا يشغله شيء عن شيء. وقال الزجاج رحمه الله تعالى: الفراغ على ضربين: أحدهما: الفراغ من شغل. والآخر القصد للشيء. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: ومعنى الآية: سنقصد لحسابكم، فأما ﴿ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ فهما الجن والإنس. سُمِّيا بذلك لأنهما ثقل الأرض[1] فهما ثقلا الأرض، باعتبار أنهما المقصودين بالتكليف، بالحساب على ما كلفهم الله تعالى به.

ثم يقول تبارك وتعالى بعد بيان مرجع الثقلين إليه للحساب والجزاء ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات تنكرون؟ فهل تنكرون مرجعكم إلى ربكم؟ فيحاسبكم على ما كان منكم في الدنيا، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فهل تُشَكِكُون أيها الْمُخَاطَبون من الجن والإنس في ذلك؟ فهو سؤال يقررهم بأنكم أيها الثقلان عائدون إلى ربكم للحساب والجزاء. بما يفيد: إذاً عليكم بكمال الطاعة والإذعان لربكم وحده لا شريك له. ومما يدل على ربوبية الله وتعالى وألوهيته، وأنه لا معبود بحق إلا الله عَزَّ وجل.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٦٢/٧)

ووجوب التصديق بهذا القرآن الذي تطابق حقائقه البيانية مع حقائق المخلوقات في فقرها إلى ربها سبحانه وتعالى، وما يترتب على ذلك من وجوب الإيمان والتصديق برسالة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

وبعد تقرير العودة والرجوع له سبحانه وتعالى للحساب والجزاء، يخبر عَزَّ وجل على سبيل التعجيز لهم عن عدم قدرتهم الانفكاك والهروب من ذلك الحساب والجزاء، فقال تعالى ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ يا أيها الجمع من الجن والإنس إن استطعتم أن تتجاوزوا ما نريده بكم فتجاوزوه من أي جهة كانت، سواء من جهة السماء أو من جهة الأرض فانفذوا. وذلك على سبيل التعجيز لهم، بما يفيد أن جميع الملك له تبارك وتعالى، وبالتالي فإنكم في قبضة ربكم عَزَّ وجل، وتحت سلطانه وقهره وإرادته. وأنكم عاجزون عن الخروج عن مراده ومشيئته. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: لا تستطيعون هرباً من أمر الله تعالى وقدره، بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أُحيط بكم. وهذا في مقام الحشر(١) ويؤكد ذلك التعجيز بأن ﴿ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ فانتبهوا من أنكم لن تتجاوزن من غير بسلطان، أي: بحجة من العلم والقوة، والتي هي لربكم تبارك وتعالى. وبالتالي فمن أين لكم سلطان تتجاوزون به؟ بما يفيد من أين لكم قوة تفلتون بها من قبضة ربكم القوي العزيز.

وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات والأرض فاعلموا. قاله ابن عباس رضي الله عنهما. والقول الثاني: إن استطعتم أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السماوات والأرض فاهربوا، واخرجوا منها. والمرد: أنكم حيثما كنتم أدركم الموت. هذا قول الضحاك ومقاتل رحمهم الله تعالى. والقول الثالث: إن استطعتم أن تجوزوا أطراف السماوات والأرض فَتُعجِزُوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فجوزوا. وإنما يُقال لهم هذا يوم القيامة. ذكره ابن جرير رحمه الله تعالى(٢) وجميع تلك الدلالات تبين سعة البيان الذي لا تضاد ولا تعارض بينها. فمن أي وجه كان التأمل استوفى المقصد بتمامه. وهذا من الإعجاز البياني للقرآن الكريم، في تعدد أوجه الدلالات، واستيعابها لذلك من غير حاجة لتكرار السياق بجميع الأوجه.

وقد بدأ البيان الكريم بالنداء الذي يعطي دلالة لفت الانتباه لمضمون عجزهم، وسماهم بصفة الجموع الكثيرة، ولكن بصيغة المفرد الذي دل عليه النداء لهم ﴿ يَٰمَعْشَرَ ﴾ لتقليل قدرتهم مع كثرتهم، فهم معشر

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٩٤/٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٦٢/٧-٢٦٣)

واحد، بالرغم من أنهم جنسين مختلفين، ولعدد كبير وكثير ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ وفي تقديم الجن على الإنس باعتبار ترتيب خلقها، فقد خلق الله تعالى الجن قبل الإنس، وأمر إبليس أن يسجد لآدم عند خلقه.

ثم تلاه بيان العجز أمام قوة ربهم وسلطانه وقهره العظيم سبحانه وتعالى ﴿ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ﴾ وقد أفاد حرف الشرط ﴿ إِنِ ﴾ التعجيز مع ما تلاه من بيان إن تم تحصيل الاستطاعة ﴿ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ إن تمكنتم ﴿ أَن تَنفُذُوا۟ ﴾ تخرجوا ﴿ مِنْ أَقْطَارِ ﴾ جمع قطر، أي: جوانب، وأطراف، ومخارج ﴿ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ سواء من خلال السماوات، أو من خلال الأرض ﴿ فَٱنفُذُوا۟ ﴾ فاخرجوا منها إن استطعتم. ولكن لا قدرة لأحد منكم، لأن الجميع تحت سلطان وقهر الله تعالى، وحكمه العادل. والسماوات والأرض هي ملك لله تعالى، وبالتالي لا مخرج لكم، لأن ليس هناك ملك غير ملك الله عَزَّ في علاه. بما يقرر كمال العجز لهم من الخروج عن مراد الله تعالى، ولا ملك إلا ملكه عَزَّ وجل.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى عجزهم بأنه لا يستطيع أحد أن يخرج وينفذ عن مراد الله تعالى وسلطانه إلا بقوة وقدرة منه جَلَّ جلاله ﴿ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴾ فانفذوا، ولكن من أين لكم قوة وقدرة تمكنكم من النفاذ والخروج والهروب. بما يفيد سواء كان المفر من يوم القيامة والحساب والجزاء، أو المفر عن طاعته، وعن عذاب الدنيا، أو عن الموت، أو عما يشاء أن يفعله ويقضيه فيكم، فلا تملكون ذلك السلطان من القدرة. ليعطي بذلك دلالة الإرشاد والتنبيه إلى مسلك الخير، من خلال التحذير، بانتفاء القدرة منكم على النفاذ، فعليكم الاستسلام لله تعالى بالتوحيد والطاعة، ونفي الحول والقوة لكل مخلوق إلا بحول وقوة الله تعالى. فخذوا حذركم بطاعة ربكم سبحانه وتعالى، ولزوم شرعه ودينه الحكيم الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا البيان هو من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يبين لهم ويرشدهم ويحذرهم من عاقبة الكفر والعصيان، ويرغبهم في الإسلام.

ثم يقول تبارك وتعالى بعد بيان عجزهم عن الخروج عن سلطانه ومراده سبحانه وتعالى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام تنكرون؟ فهل تنكرون مرجعكم إلى ربكم؟ وأنه لا مفر لكم منه إلا إليه. ليحاسبكم على ما كان منكم في الدنيا، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فهل تُشَكِّكُون أيها الْمُخَاطَبون من الجن والإنس في أنكم في قبضته وتحت مشيئته عَزَّ وجل في كل وقت وحين؟ فهو سؤال يقررهم بأنكم أيها الجن والإنس تحت سلطان وقهر ربكم، وأنكم عائدون إليه عَزَّ في علاه، ليوم عظيم شديد للحساب والجزاء. ولا مفر ولا مخرج ولا حيلة لكم من ذلك أبداً. وبما يفيد: إذاً عليكم بكمال الطاعة

والإذعان والاستسلام لربكم وحده لا شريك له. فإنكم إلى الله تعالى عائدون. وأنه لا معبود بحق إلا الله تعالى. ووجوب التصديق بهذا القرآن الذي تتطابق حقائقه البيانية مع حقائق عظمة هذا الكون، وهذا الخلق العظيم، الفقير إلى ربه سبحانه وتعالى. وما يترتب على ذلك من وجوب الإيمان والتصديق برسالة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر الله تعالى عما سيكون من الجزاء فيما لو أرادوا الفرار. فقال تعالى ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ لو استطعتم ولن تستطيعوا الفرار، فإنه ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ﴾ وهو اللهب من النار، وكذلك ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ والنحاس الذي ذاب من شدة ما أُوقد عليه من النار ﴿ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ فيمتنع عليكم نصر أنفسكم بالانفلات والهروب من مراد الله تعالى بكم. فهو بيان لمعالجة ما قد يدور في الأنفس الخبيثة من الحيل والطرق للفوات من مراد الله تعالى بما يشاء من التدبير والقضاء، ومن عذابه عَزَّ وجل. ففي ذلك إغلاق لجميع ما قد يدور في نفوس الجن والإنس.

ثم يقول تبارك وتعالى بعد بيان قوة سلطانه على الثقلين الجن والإنس، وعجزهم عن الفرار منه، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام والحجج تنكرون؟ فهل تنكرون أنكم في قبضة ربكم؟ وهل تنكرون مرجعكم إلى ربكم؟ ليحاسبكم على ما كان منكم في الدنيا، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فهل تُشَكِّكُون أيها الْمُخَاطَبون من الجن والإنس في ذلك؟ فهو سؤال يقررهم بأنكم أيها الجن والإنس تحت سلطان ربكم. وأنكم عائدون إليه، ليوم عظيم شديد للحساب والجزاء. ومما يفيد: إذاً عليكم بكمال الطاعة والإذعان لربكم وحده لا شريك له. فإنكم إلى الله تعالى عائدون. وأنه لا معبود بحق إلا الله تعالى. ووجوب التصديق بهذا القرآن الذي تتطابق حقائقه مع حقائق عظمة هذا الكون، وهذا الخلق العظيم المفتقر إلى ربه سبحانه وتعالى. وما يترتب على ذلك من وجوب الإيمان والتصديق برسالة الرسول الأمين محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾

وبعد ما سبق من التعليم والوعظ العظيم ينتقل البيان الكريم في سورة الرحمن إلى ما أخبر الله تعالى به عن أهوال يوم القيامة، وما يكون من التغيير والتبديل في الكون العظيم. فيقول جَلَّ شأنه ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴾ فإذا تفتحت وانفرجت السماء يوم القيامة، فأصبح لونها كالوردة في الاحمرار، وكذلك ﴿كَٱلدِّهَانِ ﴾ أي: كالجلد الأحمر المدهون ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام والحجج تنكرون حين ذلك؟ فهي حجج بالتنبيه والتعجيز، مع التأكيد، وتقريرهم بأنه لا يمكن لكم أن تكذبوا بالحقائق المسنودة بما أنعمنا به عليكم بجميع أنواع النعم، والتي منها نعمة البيان بالقرآن العظيم.

ففي ذلك الوقت والحين لا يُسألون سؤال التعرف على ما كان منهم، لأن كل شيء مكتوب عليهم عند الله جَلَّ جلاله، فيقول عَزَّ في علاه ﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴾ فلا يُسأل الخلق من الإنس والجن عن ذنوبهم، ليس هناك سؤال استعلام واستخبار عن ماهي ذنوبهم، ليبينوها، ويُخبروا بها، لأنها معلومة عند الله تعالى، وإنما هو الذي يخبرهم بها، وبكل دقة ووفاء منه سبحانه وتعالى. فنفي السؤال ليفيد كمال العلم بدقائق ما كان من ذنوبهم. وهذا البيان لا ينفي سؤالهم سؤال تقرير بما كان منهم. ثم يكرر سبحانه وتعالى التأكيد بكمال ما علموا مما يُوجِبُ عليهم الإيمان والتصديق، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام والحجج تنكرون؟ فهي حجج بالتنبيه والتعجيز، مع التأكيد، وتقريرهم بأنه لا يمكن لكم أن تكذبوا بالحقائق المسنودة بما أنعمنا به عليكم بجميع أنواع النعم، والتي منها نعمة البيان بالقرآن العظيم، وما سيكون من حالكم يوم البعث والنشور.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بعظيم قدرته عليهم، بأنه في يوم القيامة تنكشف سيماهم بما هم عليه من الذنوب، فقال تعالى ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴾ تظهر على كل مجرم سمة إجرامه عليه، بسواد وجهه، نتيجة قبح فعله. وعند ذلك ﴿ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴾ فيؤخذون بمجامع نواصيهم التي هي جباههم، وأقدامهم، فيسحبون إلى النار ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام والحجج تنكرون؟ فهي حجج بالتنبيه والتأكيد والتقرير لهم بأنهم مكشوفون بما كان منهم من سوء الحال في الدنيا من الكفر والتمرد على دين ربهم سبحانه وتعالى، فلا يمكن لكم أن تنكروا وتكذبوا بالحقائق المسنودة بما أنعمنا به عليكم بجميع أنواع النعم، والتي منها نعمة هذا البيان وهذا التحذير بالقرآن العظيم.

ويقال لهم ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ عاينوا وشاهدوا جهنم المستعرة بالنار، التي كنتم تنكرونها، وتكذبون المرسلين بما جاؤوا لكم به من الحجج والبينات. وقد نعتهم سبحانه وتعالى بالمجرمين، لإظهار فداحة الكفر، بأن صاحبه قد أجرم من كل وجه، وبالتالي ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ فيسعون تردداً بين عذاب جهنم ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا ﴾ أي: بين جهنم، وبين عذاب الحميم ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ أي: الشديد الحرارة، فهم بينها يسيرون سعياً من غير توقف، فإن استغاثوا من جهنم أسقوهم ماء حمياً يقطع أمعاءهم من شدة غليانه. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والحجج التي أنعم ربكم بها عليكم تنكرون؟ فهي نعمة الحجج بالتنبيه والتأكيد والتقرير لهم بأن تلك هي حالهم في العذاب، بسبب ما كان منهم من سوء الحال في الدنيا من الكفر والتمرد على دين ربهم سبحانه وتعالى، فلا يمكن لكم أن تنكروا وتكذبوا بحقائق ما أنعمنا به عليكم بجميع أنواع النعم، والتي منها نعمة هذا البيان وهذا التحذير بالقرآن العظيم.

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾

وبعد أن أخبر سبحانه وتعالى عن أهل النار من الجن والإنس، يخبر سبحانه وتعالى بما لأهل التقوى من النعيم المقيم في الآخرة. فيقول عزَّ وجل ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ولمن هاب خوفاً من ﴿ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ أي: منزلته وهيبته ومكانته جلَّ جلاله، والموقف الذي يقف فيه العباد للحساب والجزاء يوم القيامة. فإن الله تبارك وتعالى يُكافئه بجنتين يوم القيامة ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ فله من عند الله عزَّ وجل جنتان. لأن من تبعات هذا الخوف من مقام الله تعالى يوم القيامة ما يجعل المؤمن عبداً مطيعاً، فيواظب ويحافظ على طاعة ربه سبحانه وتعالى، ويتجنب ويحذر المعصية، والاقتراب منها. فيكرمه الله تعالى بكرمه، ويجازيه بجنتين في الآخرة ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ فهما مخصوصتان لمن هاب ذلك المقام عند الله

سبحانه وتعالى. قال الطبري رحمه الله تعالى: ولمن اتقى الله من عباده، فخاف مقامه بين يديه، فأطاعه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ يعني بساتين[١] وجاء في التفسير: أن العبد يهم بالمعصية، فيتركها خوفاً من الله عَزَّ وجل فله جنتان، وهما بستانان[٢] فإحداهما لإيمانه وطاعته عَزَّ وجل، والأخرى لخوفه من مقام ربه تبارك وتعالى. قال السعدي رحمه الله تعالى: إحدى الجنتين جزاء على ترك المنهيات، والأخرى على فعل الطاعات[٣] فالزيادة لخوفه من مقام ربه. بما يفيد أن للخوف من الله تعالى مزية في العطاء والإكرام. وهي القوة التي تمنع المؤمن من إتيان المعصية، حتى ولو كان خالياً. وفي هذا ترغيب للمؤمن أن يجعل الخوف من الله تعالى نصب عينيه، ويخالطه في جميع تصرفاته.

ثم يقول تبارك وتعالى بعد بيان عظيم إكرامه لمن خاف مقامه ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات التي أوضحها لكم ربكم تكذبان يا معشر الجن والإنس. ليقرر عباده سبحانه وتعالى بذلك، وأيضاً توبيخ واستنكار على من لم يصدق بالرغم مما أظهره عَزَّ وجل من الإنعام عليهم بالأرزاق، وبنعمة البيان من الحجج والبراهين. فهل تنكرون أنكم عائدون إلى ربكم؟ وهل تنكرون إكرامه لمن خاف مقامه بجنتين عظيمتين؟ فهل تنكرون يوم الحساب والجزاء على ما كان منكم في الدنيا، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؟ فهل تُشَكِّكُون أيها الْمُخَاطَبون من الجن والإنس في ذلك؟ فهو سؤال يقررهم بأنكم أيها الجن والإنس عائدون إلى ربكم، وأنكم مجزيون منه بما تستحقون. فعليكم بكمال الطاعة والإذعان لربكم وحده لا شريك له. فإنكم إلى الله تعالى عائدون. وأنه لا معبود بحق إلا الله تعالى. ووجوب التصديق بهذا القرآن الذي تتطابق حقائقه مع حقائق عظمة هذا الكون، وهذا الخلق العظيم، الفقير إلى ربه سبحانه وتعالى. وما يترتب على ذلك من وجوب الإيمان والتصديق برسالة الرسول الأمين محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يذكر تبارك وتعالى من أوصاف الجنتين: أنها ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ أي: كلتا الجنتين متصفتين بأنهما ذات أفنان. الذي هو التنوع مما لذ وطاب. ومن غزارة البيان أنها تعني مجموعة من المعاني والدلالات المتظافرة: كما قال مجاهد وعكرمة وعطية والفراء والزجاج رحمهم الله تعالى: أنها الأغصان، وهي جمع فن. وكذلك تعني: أنها الألوان والضروب من كل شيء، وهي جمع فن. وهذا قول سعيد بن جبير رحمه الله تعالى. وقال الضحاك: ذواتا ألوان. وجَمَع عطاء بين القولين، فقال: في كل غصن فنون من الفاكهة[٤] وقال الربيع بن أنس: واسعة

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣٥/٢٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٦٦/٧)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٥٤/٥)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٦٧/٧)

الفناء. وقال ابن كثير بعد أن أورد الأقوال في ذلك: وكل هذه الأقوال صحيحة ولا منافاة بينها والله أعلم[١]

فهي شاملة في دلالتها لجميع ما سبق. فاستوعب البيان العظيم المتكون من كلمتين ﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴾ جميع تلك المعاني، بما يدل على الإعجاز البياني المتوافق مع الإعجاز في الخلق والتكوين وعظمة الجزاء. فسبحان من جعل الإعجاز والدلائل والحجج في كل آياته الكونية وآياته البيانية العظيمة.

ثم قال تبارك وتعالى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام، وما وعد به أهل الخوف من مقامه بهذا الإنعام في الآخرة تنكرون؟، فبأي شيء منها تكذبون وتشككون؟. فليس لكم أن تنكروا وتكذبوا بالحقائق المسنودة بما أنعمنا به عليكم من جميع أنواع النعم، والتي منها نعمة هذا البيان، وهذه الدلائل التي تضمنها كتاب ربكم القرآن العظيم.

ثم ذكر عَزَّ وجل من أوصاف الجنة أن ﴿ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴾ أي: تجريان في تدفق بما فيها من شراب أهل الجنة. قال ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن البصري: إحداهما يقال لها تسنيم، والأخرى السلسبيل[٢] ثم قال تبارك وتعالى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام تكذبون وتشككون؟ وبأي شيء مما وعد به أهل الخوف من مقامه بهذا الإنعام في الآخرة تُكَذِّبُون؟ فلا يمكن لكم أن تنكروا وتكذبوا بالحقائق المسنودة بما أنعمنا به عليكم من جميع أنواع النعم، والتي منها نعمة هذا البيان، وهذه الدلائل التي تضمنها كتاب ربكم القرآن العظيم.

وكذلك من أوصاف الجنتين أن ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴾ أي: صنفان. والفاكهة هو كل ما يتفكه ويتنعم به الإنسان من ثمار الفواكه، ووصف سبحانه وتعالى كل نوع من الفاكهة أنه ﴿ زَوۡجَانِ ﴾ ليدل على الكثرة والتنوع ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام، وما وعد به أهل الجنة من نعيم التفكه بالفاكهة تكذبون وتشككون؟ فلا يمكن لكم أن تنكروا وتكذبوا بالحقائق المسنودة بما أنعمنا به عليكم بجميع أنواع النعم، والتي منها نعمة هذا البيان، وهذه الدلائل التي تضمنها كتاب ربكم القرآن العظيم.

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١١٦/١٧) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٩٧/٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٩٧/٤)

ثم يخبر تبارك وتعالى عن كمال متعة جلوس أهل الجنتين، فيقول عَزَّ وجل ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴾ فأهل الجنتين يجلسون على سرر من التنعم والسرور، وحالهم وهم على هذه السرر أنهم ﴿ مُتَّكِـِٔينَ ﴾ أي: في حالة من التنعم والجلوس المريح لهم. لأن الاتكاء يدل على كمال الراحة مع التنعم، فهو الجلوس المعبر عن تمام الراحة والاستقرار، والسعادة والسرور، حتى أنه لا يحتاج معه أن يقوم بأي خدمة لنفسه أو لغيره. كما أن اتكاءهم ﴿عَلَىٰ فُرُشِۭ ﴾ جمع فراش، بما يدل على كثرتها، لأن ﴿ فُرُشِۭ ﴾ جمع، والواحد منها فراش.

وأما صفة هذه الفرش فكما قال تعالى ﴿ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ ﴾ أي: من الديباج. والبطائن ما كان جهة الأسفل، لأن البطن ضد الظهر، فيقال للجهة العليا ظهر، وللسفلى بطن، فهذه البطائن ﴿مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ ﴾ أي: من غليظ الديباج، وفيه بريق[1] وهو من أفضل وأفخر وأفخم وأحسن الأنواع. وإذا كانت هذه البطانة بهذا الوصف، فكيف بأعلاها، مما يباشره الجالس عليها. قال ابن جرير رحمه الله تعالى في معناها: بطائن هذه الفرش من غليظ الديباج. والإستبرق عند العرب ما غلظ من الديباج وخَشُن[2] قال أبو هريرة رضي الله عنه: هذه البطائن. فما ظنكم بالظاهر[3] مما يدل على أن شكلها وجمالها لا يخطر ببال الإنسان من عظيم جمالها ورونقها، وراحتها.

ثم يخبر سبحانه عن ثمرها الذي أيعن في الاستواء والنضج، فقال تعالى ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴾ وثمر هاتين الجنتين في متناول اليد ﴿ دَانٖ ﴾ أي: قريب من أهل الجنة، فإذا اشتهاه فإنه قريب منه، لا يحتاج إلى عناء لقطفه. ثم قال تعالى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام، وما وعد به أهل الجنة من نعيم التفكه بالفاكهة، وفخامة المجالس والأسرة، وما عليها من الفرش، وقُرب ودُنو ما في الجنة من الفواكه منهم تكذبون؟ فبأي منها تنكرون؟ سؤال يقرر به حقائق الغيب التي أثبتها الله تعالى بدلائل إنعامه التي أنعم بها على البشر في الدنيا، سواء مما هو من الأرزاق، أو البينات والحجج المبثوثة في الكون، وما تضمنه القرآن الكريم من الحقائق والبينات. فلا يمكن لكم أن تنكروا وتكذبوا بالحقائق المسنودة

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٨٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٢٤٢)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٢٦٨)

بما أنعمنا به عليكم بجميع أنواع النعم، والتي منها نعمة هذا البيان، وهذه الدلائل التي تضمنها كتاب ربكم القرآن العظيم. سؤال يستثير التفكير للتراجع عن التكذيب والإنكار.

ثم ينتقل البيان من الله تعالى إلى ما في الجنة من الحور العين، فيقول عَزَّ وجل ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٌ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنٌّ ﴾ وفي الجنتين المذكورتين الحور العين، المتصفات بأنهم ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ ﴾ أي: جعلن أعينهن فقط على أزواجهن، فلا ينظرن لغيرهم من الرجال، فلا يُردن غير أزوجهن. بما يفيد أنها لا ترى أحسن وأجمل منه، بما أودع الله تعالى في قلبها من القناعة، الذي حصل به قصر أطرافهن على أزواجهن. ثم قال تعالى ﴿ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٌ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنٌّ ﴾ فلم يسبق أن جامعهن أحد أبداً، لا من الإنس، ولا من الجن. لأن دلالة نفي الطمث ﴿ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ ﴾ تعطي النفي القاطع عن أن يكون لهن سابق معاشرة، سواء من الجن أو الإنس. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أي: لم يُدمهن إنس ولا جان[١] وهذا من كمال دقة الوصف لكمالهن.

ثم قال تبارك وتعالى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام، وما وعد به أهل الجنة من نعيم الحور العين تنكرون؟ سؤال يقرر به حقائق الغيب التي أثبتها الله تعالى بدلائل إنعامه التي أنعم بها على البشر، سواء مما هو من الأرزاق، أو البينات والحجج مما في الكون، وما تضمنه القرآن الكريم من الحقائق والبينات. فلا يمكن لكم أن تنكروا وتكذبوا بالحقائق المسنودة بما أنعمنا به عليكم بجميع أنواع النعم، والتي منها نعمة هذا البيان، وهذه الدلائل التي تضمنها كتاب ربكم القرآن العظيم. وهو سؤال تقريري، يقررهم بما لا يمكن لهم إنكاره. وفي نفس الوقت يحثهم به سبحانه وتعالى على التفكر والتأمل الذي يقود للإيمان والتصديق.

ثم يصف سبحانه وتعالى جمال الحور العين، فيقول عَزَّ وجل ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴾ فهؤلاء الحور العين، القاصرات الطرف ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ ﴾ في صفائه ﴿ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴾ في بياضه. فهن في صفاء الياقوت ونقائه، وبياض المرجان. وهو الأشد بياضاً، فقد اجتمع في جمالهن صفاء اللون، مع قوة البياض في نقائه وصفائه. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام، وما وعد به أهل الجنة من نعيم الحور العين تنكرون؟ سؤال يقرر به حقائق الغيب التي أثبتها الله تعالى بدلائل

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤٧/٢٢)

إنعامه بالنعم التي أنعم بها على عباده، سواء مما هو من الأرزاق، أو البينات والحجج مما في الكون، وما تضمنه القرآن الكريم من الحقائق والبينات. فلا يمكن لكم أن تنكروا وتكذبوا بالحقائق المسنودة بما أنعمنا به عليكم بجميع أنواع النعم، والتي منها نعمة هذا البيان، وهذه الدلائل التي تضمنها كتاب ربكم القرآن العظيم.

ثم يخبر الله تعالى عن عظيم كرمه في كمال وعظيم جزائه لمن أطاعه، وخاف مقامه، فيقول تبارك وتعالى ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ فهل من العدل أن يكون غير ذلك؟ فإن جزاء من أحسن في الدنيا أن يُحسن إليه في الآخرة، جزاء وفاقا. وقد أورد الله سبحانه وتعالى هذا الجزاء بصيغة السؤال التقريري لإنعامه العظيم الجليل على من أطاعه في الدنيا. ليفيد الترغيب والحث على طاعته، لينال من أطاعه هذا الثواب العظيم الذي يفوق طاعة العباد. مما يدل على كرم الله تعالى، وجميل إحسانه ورحمته. ومن دقائق البيان أن حصر سبحانه وتعالى الجزاء للمحسن في الرد له بالإحسان، ليعطي التأكيد، والمبالغة في تحققه. وأنه مقتضى العدل من الله تعالى مع عباده المحسنين. وليفيد كذلك أن الإحسان هو كمال طاعة الله تعالى. فإن طاعة الله عَزَّ وجل والامتثال له تعني الإحسان.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام، وما وعد به أهل الجنة من كمال النعيم الذي بينه لكم تنكرون؟ سؤال يقرر به حقائق الغيب التي أثبتها الله تعالى بدلائل إنعامه التي أنعم بها على البشر، سواء مما هو من الأرزاق، أو البينات والحجج مما في الكون، وما تضمنه القرآن الكريم من الحقائق والبينات. فلا يمكن لكم أن تنكروا وتكذبوا بالحقائق المسنودة بما أنعمنا به عليكم بجميع أنواع النعم، والتي منها نعمة هذا البيان، وهذه الدلائل التي تضمنها كتاب ربكم القرآن العظيم.

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾

ويخبر الله تعالى بمزيد فضله من الجنان العظيمة على عباده الذين خافوا مقامه، وموقفهم أمامه تبارك وتعالى، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ أي: جنتان إضافيتان. غير السابقتين التي سبق

وصفها لمن خاف مقام ربه. وقد أعطى هذا البيان دلالتين: إحداهما: أنهما جنتان لمن هم دون من خاف مقام ربهما في الدرجة. والمعنى الثاني: أي: من أمامهما، ومن قبلهما لمن خاف مقام ربه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: من دونهما في الدَّرج. وعن أبي موسى فيما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (جنتان من ذهب، وجنتان من فضة)(١) ففي صحيح البخاري رحمه الله تعالى (جنتان من فضة، آنيتهما، وما فيهما. وجنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما) (٢) فدون الجنتين السابقتين جنتان من نوع آخر.

ثم خاطب تبارك وتعالى الجن والإنس قائلاً عَزَّ وجل ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام، وما وعد به أهل الجنة من كمال النعيم الذي بينه لكم تنكرون؟ سؤال يقرر به حقائق الغيب التي أثبتها الله تعالى بدلائل إنعامه التي أنعم بها على البشر، سواء مما هو من الأرزاق، أو البينات والحجج مما في الكون، وما تضمنه القرآن الكريم من الحقائق والبينات. فلا يمكن لكم أن تنكروا وتكذبوا بالحقائق المسنودة بما أنعمنا به عليكم بجميع أنواع النعم، والتي منها نعمة هذا البيان، وهذه الدلائل التي تضمنها كتاب ربكم القرآن العظيم. وهو سؤال يستثير الذهن والفكر والعقول الصحيحة نحو التفكر والتأمل الذي يقودها للتصديق والإيمان بما وعد الله تعالى به، وأنه حقيقة لا جدال فيها.

ومن أوصاف هاتين الجنتين أنهما ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ أي: خضراوان، إلى درجة بلوغ الغاية في نضارتها من شدة الاخضرار. قال ابن عباس رضي الله عنهما: خضراوان(٣) ثم خاطب تبارك وتعالى الجن والإنس ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام، وما وعد به أهل الجنة من كمال النعيم الذي بينه لكم تنكرون؟ سؤال يقرر به حقائق الغيب التي أثبتها الله تعالى بدلائل إنعامه التي أنعم بها على البشر، سواء مما هو من الأرزاق، أو البينات والحجج مما في الكون، وما تضمنه القرآن الكريم من الحقائق والبينات. فلا يمكن لكم أن تنكروا وتكذبوا بالحقائق المسنودة بما أنعمنا به عليكم بجميع أنواع النعم، والتي منها نعمة هذا البيان، وهذه الدلائل التي تضمنها كتاب ربكم القرآن العظيم.

ومن أوصافهما أن ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أي: أن صفة نبع مائهما أنهما ينضحان، أي: فوارتان. فإنه حتى في طريقة نبع وجريان ما فيهما أنهما مختلفتان، ففي الجنتين السابقتين قال تعالى ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٧٠/٧)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٤٨٧٨)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٥٥/٢٢)

بينما في هاتين الجنتين قال عَزَّ وجل ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ مما يدل على أنه من كمال وجمال الحسن الاختلاف والتغاير، حتى في طريقة مجيء ما فيها من الماء، والعسل، والخمر، واللبن. ثم قال جَلَّ جلاله ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام، وما وعد به أهل الجنة من كمال النعيم الذي بينه لكم تنكرون؟ سؤال يقرر به حقائق الغيب التي أثبتها الله تعالى بدلائل إنعامه التي أنعم بها على العباد، سواء مما هو من الأرزاق، أو البينات والحجج مما في الكون، وما تضمنه القرآن الكريم من الحقائق والبينات. فلا يمكن لكم أن تنكروا وتكذبوا بالحقائق المسنودة بما أنعمنا به عليكم بجميع أنواع النعم، والتي منها نعمة هذا البيان، وهذه الدلائل التي تضمنها كتاب ربكم القرآن العظيم.

وأما عن فاكهتها فيقول عَزَّ وجل ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ أي: وفي هاتين الجنتين ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ ﴾ ما يتلذذ ويتفكه به من جميع أنواع وألوان وأحجام الثمار، كالبرتقال والتفاح والعنب، ونحو ذلك من الفواكه، والتي لا تخطر ببال أحد من البشر. ثم أفرد سبحانه وتعالى النخل والرمان بعد الفاكهة لما تميزا به، فقال تعالى ﴿ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ لأن النخل ذات الأوعية المتصفة بالالتفاف على ثمرها في أول طلعها، فهو في كنف من الغطاء الذي يحفظ الثمار حتى تنمو شيئاً فشيئاً، ثم يتفطر ذلك الوعاء، ويتشقق عن ثماره، ليُكمل نضجه خارج أكنافه. فإنه غاية الإبداع والعناية بما خلق.

وكذلك أفرد سبحانه وتعالى الرمان بالذكر ﴿ وَرُمَّانٌ ﴾ فخص الرمان بالذكر والتعيين لما فيه من إبداع وعجائب التركيب، وتنوع أشكال تراكيب تلك الحبوب في حجمها وأشكالها وألوانها وأنواعها، وما يلتف حول حباتها وبين مجموعاتها من الأغشية الخفيفة الرقيقة. ثم قال تعالى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام، وما وعد به أهل الجنة من كمال النعيم الذي بينه لكم تنكرون؟ سؤال يقرر به حقائق الغيب التي أثبتها الله تعالى بدلائل إنعامه التي أنعم بها على البشر، سواء مما هو من الأرزاق، أو البينات والحجج مما في الكون، وما تضمنه القرآن الكريم من الحقائق والبينات. فلا يمكن لكم أن تنكروا وتكذبوا بالحقائق المسنودة بما أنعمنا به عليكم بجميع أنواع النعم، والتي منها نعمة هذا البيان، وهذه الدلائل التي تضمنها كتاب ربكم القرآن العظيم. أفلا يدل ذلك على عظمة الخالق، وعظمة قدرته، وجلال تدبيره البديع الذي ليس له مثيل؟ ألا يدل ذلك على إكرامه للإنسان؟ فهو المعني بهذا الإنعام. فمن أي وجه نظرت وتأملت استعظمت الخالق عَزَّ وجل. فاعبدوه، ووحدوه سبحانه وتعالى، وأطيعوا رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وتمسكوا بدينه القويم.

ثم يذكر جَلَّ جلاله ما فيهن من الحور العين، فيقول عَزَّ وجل ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ ففي هذه الجنان الحور العين المتصفات بكمال الجمال ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ أي: الحور العين المتصفات بالخيرية في كل شيء، مع جمال الحسن. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: في هذه الجنان الأربع: اللواتي اثنان منهن لمن خاف مقام ربه، والأخريان من دونهما المدهامتان خيرات الأخلاق، حِسان الوجوه[١] ثم قال جَلَّ جلاله ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام، وما وعد به أهل الجنة من كمال النعيم الذي بينه لكم تنكرون؟ سؤال يقرر به حقائق الغيب التي أثبتها الله تعالى بدلائل إنعامه التي أنعم بها على البشر، سواء مما هو من الأرزاق، أو البينات والحجج مما في الكون، وما تضمنه القرآن الكريم من الحقائق والبينات. فلا يمكن لكم أن تنكروا وتكذبوا بالحقائق المسنودة بما أنعمنا به عليكم بجميع أنواع النعم، والتي منها نعمة هذا البيان، وهذه الدلائل التي تضمنها كتاب ربكم القرآن العظيم.

ومن مواصفات الحور العين أنهن ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ والحور هن نساء الجنة الموصوفات بجمال البياض النقي، مع سعة العيون. وقال مجاهد رحمه الله تعالى: والحور: اللاتي يحار فيهن الطرف. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: الحور هو نقاء البياض. كما قيل للنقي البياض من الطعام: الحُوَّارَى[٢] وكذلك من أوصافهن أنهن ﴿ مَّقْصُورَٰتٌ ﴾ أي: مخبآت ﴿ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ وهي الخيام ليست كخيام الدنيا، فهي من اللؤلؤ. فشملت دلالة ﴿ مَّقْصُورَٰتٌ ﴾ على التخبئة، وكذلك على قصر أطرافهن على أزواجهن، فلا يرفعن أطراف أعينهن إلى غير أزواجهن. مما تقر أعين الأزواج بهن، وهذا من كمال طمأنينة النفس عليهن، فلا يخاف منهن ولا عليهن من أحد أبداً. وهي نعمة من الله تعالى إذ قذف في قلوبهن ما يجعلهن قاصرات الطرف على أزوجهن فلا يرين أحسن من أزواجهن جمالاً.

ثم قال تبارك وتعالى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام، وما وعد به أهل الجنة من كمال النعيم الذي بينه لكم تنكرون؟ سؤال يقرر به حقائق الغيب التي أثبتها الله تعالى بدلائل إنعامه التي أنعم بها على البشر، سواء مما هو من الأرزاق، أو البينات والحجج مما في الكون، وما تضمنه القرآن الكريم من الحقائق والبينات. فلا يمكن لكم أن تنكروا وتكذبوا بالحقائق المسنودة بما أنعمنا به عليكم بجميع أنواع النعم، والتي منها نعمة هذا البيان، وهذه الدلائل التي تضمنها كتاب ربكم القرآن العظيم.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٢٦٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٦٥)

ويتكر الوصف للحور العين بما يفيد التأكيد، فيقول تبارك وتعالى ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ فلم يسبق أن جامعهن أحد أبداً، لا من الإنس، ولا من الجن. فلم يَدْمِّن بِدَمٍ فك البكارة أبداً. لأن دلالة نفي الطمث ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ تعطي النفي القاطع عن أن يكون لهن سابق معاشرة، سواء من الجن أو الإنس. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أي: لم يُدمهن إنس ولا جان[1] وهذا من كمال دقة الوصف لكمالهن.

ثم قال تبارك وتعالى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام، وما وعد به أهل الجنة من نعيم الحور العين تنكرون؟ سؤال يقرر به حقائق الغيب التي أثبتها الله تعالى بدلائل إنعامه التي أنعم بها على البشر، سواء مما هو من الأرزاق، أو البينات والحجج مما في الكون، وما تضمنه القرآن الكريم من الحقائق والبينات. فلا يمكن لكم أن تنكروا وتكذبوا بالحقائق المسنودة بما أنعمنا به عليكم بجميع أنواع النعم، والتي منها نعمة هذا البيان، وهذه الدلائل التي تضمنها كتاب ربكم القرآن العظيم.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن كمال متعة جلوس أهل الجنتين، فيقول عَزَّ وجل ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ فأهل الجنتين يجلسون على سرر، وحالهم وهم على هذه السرر أنهم ﴿ مُتَّكِـِٔينَ ﴾ أي: في حالة من التنعم والجلوس المريح لهم. والاتكاء يدل على كمال الراحة مع التنعم، فهو الجلوس المعبر عن الراحة والاستقرار، والسرور الذي لا يحتاج معه أن يقوم بخدمة لنفسه أو لغيره. وهذا الاتكاء هو ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ ﴾ وهي البسط، وقد ورد في معنى الرفرف دلالات متعاضدة في بيانها ومعناها. فاشتقاق الرفرف من رف يرف إذا ارتفع. ومنه رفرفة الطائر، بتحريك جناحيه حول الشيء، قاصداً أن يقع عليه. وهي تعني فضول الفرش والبسط. وقيل: الْفُرُش المرتفعة، وقيل: حاشية الثوب. وقيل: ضرب من الثياب الخضر تبسط. وقيل: كل ثوب عريض عند العرب فهو مرفرف[2] وهذه من عظمة وغزارة البيان في استيفائه الوصف بالكلمة التي تستوفي تنوع الموصوف. وبما يُظهر ويعطي قوة الإعجاز البياني لسياق القرآن الكريم، ودلالاته.

وقد وصف جَلَّ شأنه لون هذا الرفرف بأنه ﴿ خُضْرٍ ﴾ فألوانه هو اللون الأخضر، بما يفيد أنه قد تم اختياره بذلك، لأنه الأبهج والأجمل لها. ومن الأوصاف كذلك أنه ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ والعبقري هو

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٢٤٧)

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧/١٢٤)

الفرش. قال أبو عبيدة: يُقال لكل شيء من البُسُط: عبقري[١] فكل متميز بالجودة هو عبقري. وصفته أنه استوفى كمال الْحُسْن ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ قد اتصف بالحسن الذي تبتهج به النفوس. فبلغ غاية الحسن وأكمله وأتمه.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي هذه الآيات العظيمة من البينات والإنعام، وما وعد به أهل الجنة من نعيم فخامة المجالس والأسرة، وما عليها من الفرش، وقُرب ودُنو ما في الجنة من الفواكه منهم تنكرون؟. سؤال يقرر به حقائق الغيب التي أثبتها الله تعالى بدلائل إنعامه التي أنعم بها على البشر، سواء مما هو من الأرزاق، أو البينات والحجج مما في الكون، وما تضمنه القرآن الكريم من الحقائق والبينات. فلا يمكن لكم أن تنكروا وتكذبوا بالحقائق المسنودة بما أنعمنا به عليكم بجميع أنواع النعم، والتي منها نعمة هذا البيان، وهذه الدلائل التي تضمنها كتاب ربكم القرآن العظيم. فيكون جواب المؤمن لا نكذب يا ربنا بشيء من ذلك أبداً، بل كل ذلك حقيقة، كما أن هذا الكون حقيقة. ونسأل الله تعالى ذلك النعيم لنا ولجميع المسلمين يا رب العالمين، بمنك وكرمك وفضلك يا أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، يا رب العالمين.

ثم ختم الله تبارك وتعالى سورة الرحمن بالتعظيم والتمجيد على ذاته جَلَّ جلاله بما أنعم وخلق مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على بال أحد. فقال تعالى ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ تبارك ربكم، الذي اتصف بكمال البركة، التي تعني الفضل العظيم، والخير والنفع المتتالي الوفير، والذي يزيد ويتنامى ولا ينقطع. ودلالة ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾ تفيد التعظيم والتقديس لذاته سبحانه وتعالى، بما أفاض من الإنعام والخيرات على عباده، ابتداء من الخلق والإيجاد، ثم إنزال الكتب على الرسل، وخاتمة تلك الكتب هو القرآن العظيم. فتبارك الله عَزَّ وجل. قال الفراء رحمه الله تعالى: إن تبارك وتقدس في العربية واحد، ومعناهما العظمة، وقيل المعنى: تبارك عطاؤه، أي: زاد وكثر. وقال العلماء: هذه اللفظة لا تستعمل إلا لله سبحانه وتعالى، ولا تستعمل إلا بلفظ الماضي[٢] فقد تزايد خيره وتكاثر، وعَظُم سبحانه وتعالى في أوصافه وأسمائه وأفعاله، وأرزاقه، وعَلَت عظمته وقدرته وجلاله عَزَّ وجل، وحَلَّت وعَمَّت ودامت بركته وكثر خيره وفضله وإحسانه، فهو رب العالمين الذي له الخلق والأمر. فتقدس وتنزه وتعالى وتعاظم ربنا جَلَّ جلاله.

وقد أسند تبارك وتعالى البركة إلى ﴿ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والاسم ما دل على ذات، سواء كان علماً، مثل لفظ الله، أو كان صفة مثل: الصفات العلى، والأسماء

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٧٣/٧)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٦٠/٤)

الحسنى. فأي اسم قدرت من أسماء الله تعالى فهو دال على ذات الله عَزَّ وجل[١] فأفاد كمال الاحتواء لجميع أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العلى. فتباركت جميع أسماء الله عَزَّ وجل، مما يفيد أن في دعاء الله تعالى بأسمائه ما تتحقق به البركة.

ويفيد الخطاب البياني أنه موجه للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ تبارك ذكر ربك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي هذا تعظيم لمقامه عليه الصلاة والسلام، وبيان لكل أحد بأن ربك أيها الْمُخَاطَب قد تباركت أسماؤه ودلالاتها ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ وأن ربكم سبحانه وتعالى موصوف بأنه ﴿ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ بالعظمة وكثرة العطاء. والجلال يعني العظمة والكبرياء التي له وحده لا شريك له. ﴿ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ كثير العطاء لجميع خلقه، من الإيجاد، والأرزاق المتنوعة التي لا تُعد ولا تُحصى، والتي منها إنزال القرآن العظيم، وبعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا الدين والتشريع الحكيم العظيم، وما زود به الإنسان في نفسه من القدرات، التي منها القدرة على البيان، والفهم والحفظ لهذا القرآن العظيم، ولغيره مما هو جدير بالحفظ والفهم والعناية، والذي استهلت بها سورة الرحمن في مطلعها العظيم. ومن كرمه كذلك ما يشمل إكرام أهل الجنة بذلك الإكرام والوصف العظيم من السعادة والإنعام. اللهم إنا نسألك والمسلمين أجمعين الجنة بمنك وفضلك من غير سابقة حساب ولا عذاب.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الرحمن. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١١/٢١٨)